الفصل 3

مَن نحن على شبكة الإنترنت؟

التنكُّر الرقمي، والخصوصية، وإخفاء الهوية، والمجتمع، والإنسان نصف الآلي-السايبورغ- والتحرر

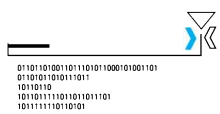

- هل الحياة على شبكة الإنترنت حفلة تنكُّرية؟
- هل عملت شبكة الإنترنت على قتل الخصوصية؟
- هل نتحول إلى كائنات إلكترونية خارقة تفوق البشر؟
- إخفاء الهوية، والاستفزاز، والسلوك الفاضح، يا للهول!
- هل تُعَدُّ المجتمعات الافتراضية مجتمعات حقيقية؟
- ما مقدار الحياة الافتراضية المناسب لنا؟
- الهيمنة، والإمبريالية الثقافية، و/ أو التنوع الرقمي.

من أكثر الأسئلة التي حظيت بنقاش ودراسة عن الثقافة الرقمية السؤال المتعلق بقدر التشابه أو عدمه بين هوياتنا على الإنترنت وهوياتنا خارجه. سنتناول في هذا الفصل قضايا رئيسة في هذا الشأن من زوايا مختلفة تتعلق بمساعي فهم علاقة الحياة الحقيقية بالحياة الرقمية أو الافتراضية. تشمل هذه القضايا الأشخاص الذي يخفون هوياتهم على الإنترنت، وتغير أفكار الخصوصية الشخصية التي أحدثتها ثقافة المراقبة ووسائط التواصل الاجتماعي الكاشفة، وأوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعات الافتراضية والمجتمعات التقليدية خارج الإنترنت، وإخفاء الهوية على الإنترنت، وأثر ذلك في تحديد طريقة حوارنا مع بعض بعضًا، والأسئلة المطروحة عن حقيقة تحوُّلنا إلى كائنات خارقة فوق بشرية (لها جانب بشري، وآخر آلي) في ظل تعمُّق ارتباطنا بالأجهزة الرقمية.

أشرنا فيما مضى إلى أن القول بوجود خطوط فاصلة واضحة بين العالَم الحقيقي والعالَم الافتراضي لا يصمد أمام الفحص الدقيق. غير أن الوجود على الإنترنت يمنح إحساسًا مختلفًا عن الوجود خارجه. ولا يكاد يوجد شكٌّ في أن خبرات الاتصال بالإنترنت يمكن أن تُغيِّر حال الناس من أوجه كثيرة مختلفة. وتوجد طرائق عدَّة ظهرت فيها هذه التغيرات، إلى جانب الجدل الكبير عن حجم التغيرات الحقيقي. من الأفكار

الأساسية في هذه المناقشات القول بأن هوياتنا الثقافية في عصر ما بعد الحداثة هي أقل استقرارًا وأكثر مرونةً ممَّا كانت عليه على مرِّ التاريخ، وأن تقنية الاتصالات والمعلومات تؤدي دورًا في إحداث حالة عدم الاستقرار هذه.

يوجد ادِّعاء عام بأن تعقيدات الحياة المعاصرة تُضعِف أنماط الهويات الاجتماعية التقليدية. والحقيقة أن المعلومات المتوافرة عن الثقافات وطرائق الحياة الأخرى (تتيح الوسائط الرقمية قدرًا كبيرًا منها) يمكن أن تُسبِّب وحدها إرباكًا وتحديًا لهوية الأفراد، ولا سيما الشباب في سنوات التكوين. وبالمقابل، يحتفي بعض الأشخاص بهذا الأمر، ويصفه بأنه يحررنا من أساليب الحياة المتحجرة وأدوارها الجامدة. ويرى آخرون أن هذا تطور خطير، وأن الجانب الآخر منه يعني يأس الناس وتحوُّلهم إلى الأصوليات الدينية، أو الأيديولوجية، أو التفسُّخ، وغياب الهدف، والارتباك الأخلاقي. ينقسم علماء العلوم الاجتماعية (علماء الاجتماع، وعلماء الأنثروبولوجيا الثقافية، وعلماء النفس) حول صحة هذه الادِّعاءات انقسامًا عميقًا. فبعضهم يتشكك في أن قضية استقرار الهوية تخص الوقت الحاضر أكثر ما كانت تخص عصور سابقة، ويشكُّ آخرون في ضرورة وجود هويات مستقرة. فأين الحقيقة. وبأيِّ قدر تختلف الحياة الحقيقية عن الحياة الافتراضية؟ وكيف تُغيِّر الثقافات الرقمية هوياتنا أفرادًا ومجتمعاتٍ؟

هل الحياة على شبكة الإنترنت حفلة تنكُّرية؟

في مقالها المنشور عام 1995م، بعنوان «النص قناعًا: النوع واللعب والأداء التمثيلي على الإنترنت» (Text as Mask: Gender, Play and Performance on the Internet)، تعرض لنا برندا دانيت (Brenda Danet) طائفة من الكتابات ذات الأثر العميق التي ظهرت منذ الأيام الأولى للثقافة الإلكترونية، والتي ما زالت صالحة إلى اليوم، يكشف المقال عن انبهار بفكرة أن الويب مُصمَّمة للعب غير المحدود بالهوية (Danet, 1998).ولم يكن الطرف الآخر في الحوار الرقمي يعرف -بالضرورة-

هويتك وشكلك تحديدًا في الوقت الذي كانت فيه الويب -في الأساس- وسيطًا للغة المكتوبة. توصَّلت دانيت إلى أن نحو 80% من مستخدمي الويب الذين شملتهم دراستها المسحية يقرُّون أنهم يتظاهرون بانتمائهم إلى نوع، أو عرق، أو توجُّه جنسي يختلف عمَّا هم عليه في الحياة الحقيقية. ولا شكَّ في أن هذا الرقم قد تضاعف بسبب توقيت دراستها المسحية؛ إذ كان معظم مستخدمي «الإنترتيوبس»[1] (Intertubes) الأوائل المغامرين يتبنون اتجاهًا طليعيًّا مضادًّا للثقافة السائدة. وسرعان ما التقط المعلنون مفهوم الفضاء مجهول الاسم المفتوح للعب بالهوية، وبدؤوا بحديثهم المشهور عن أن الويب هي مكان يتجاوز الجنس والطبقة والنوع (كأن العالَم الافتراضي حلَّ محلَّ العالَم الحقيقي بصورة كاملة). بعد ذلك مباشرةً، تكشَّفت طبيعة هذا الادِّعاء بطريقة ساخرة في رسم كرتوني مشهور نُشِر في صحيفة نيويوركر عام 1993م. يُصوِّر الرسم كلبًا يجلس إلى جانب لوحة مفاتيح، ويقول لكلب آخر: «على شبكة الإنترنت لا يعرف أحد أنك كلب» (Steiner, 1993). توالت بعد هذا الرسم الكرتوني رسوم ساخرة أخرى تقول: «على شبكة الإنترنت لا يعرف أحد أنك...» (كائن فضائي، قطة، قطعة مخلل؛ اختر ما شئت).

كانت المبالغة في الاتساع والعمق لهذه الظواهر المُبدِّلة للهوية جزءًا من اتجاه أوسع في الثقافات الإلكترونية الأولى للمبالغة في وصف الهُوَّة بين الحياة الحقيقية والحياة الافتراضية. نقول مرة أخرى إن هذا مرده جزئيًّا حداثة ذلك الوسيط، الذي كان نصيًّا أساسًا، وكان أكثر مستخدميه أناسًا متطرفين في حب المغامرة، لا يُمثِّلون القاعدة العريضة من الناس، ولكن الادِّعاءات المغالية بأن الناس ربما يكونون أشخاصًا مختلفين تمامًا على الإنترنت، وأن هويتنا خارج الإنترنت مجهولة،

(1) مجموعة من الشاشات تنقل المعلومات إلى مختلف أنحاء العالَم بوساطة الحاسوب. المترجمة

ولا أهمية لها في هذا السياق؛ معناها إثارة أسئلة تستحق اهتمامًا كبيرًا عن أثر الثقافات الإلكترونية في الهوية.

توجد أمثلة مهمة على ظواهر تحوُّل الهوية تُدْرَس – حتى اليوم– دراسة جادَّة ضمن مفاهيم عدَّة، مثل: التبديل العنصري[2]، وسياحة الهوية (Nakamura, 2002). وفي الواقع، فإن للتعامل مع الثقافات الرقمية أثر في صورة الذات، وهذا يتخذ صورًا عدَّةً من شيء تافه نسبيًّا (مثل الكذب الإلكتروني بخصوص ملامح الشخص، أو وظيفته، أو عمره على مواقع التعارف بين الجنسين)، إلى أعمال أشد خطرًا تصل إلى درجة الإجرام مثل انتحال الشخصية. ولكن، مثلما يوحي مصطلح «سياحة الهوية»، فإن مجرد المرور العابر بهوية يختلف اختلافًا كبيرًا عن تمثُّل ذات تكون عُرضة للتمييز في كثير من الأحيان.

إن اكتساب الكفاءة الثقافية العميقة تُمكِّن الشخص من فهم موقع ذاتٍ تخص شخصًا آخرَ عندما يكون مختلفًا اختلافًا بيِّنًا عن موقعه الذاتي (موقع الذات هو الموقع الذي يضعك فيه في العالَم: جنسك، ونوعك، ولغتك، وطبقتك، وما إلى ذلك، والذي يُمثِّل نظرتك إلى العالَم من دون وعي منك) من حيث الانتماء العرقي، والطبقة، والنوع، وغير ذلك. ولا يتحقَّق هذا الفهم العميق عن طريق التصفُّح العابر، أو التنكُّر الرقمي.

ما تزال هذه الأفكار المبكرة عن الهوية في الفضاءات الإلكترونية على جانب كبير من الأهمية، ولكن على نحوٍ بعيد عن المغالاة؛ إذ يُمثِّل مفهوم «تبديل أردية الهوية» ظاهرة مهمة في غرف «الدردشة»، ومواقع التواصل الاجتماعي، ومواقع التعارف بين

(2) انتحال شخص من عنصر ما هوية شخص من عنصر آخر على شبكة الإنترنت. ويُعزى هذا التعبير (cross-dressing) إلى ما يحدث أحيانًا من ارتداء أحد الجنسين ملابس الجنس الآخر، أو اتخاذ هيئته. المترجمة

الجنسين، وغير ذلك من فضاءات الإنترنت. وإن ظهور المصطلح العامي «كات فيش» (catfish) (سمكة القرموط[3]) لوصف الشخص الذي يكذب باستمرار بخصوص هويته على الإنترنت ليشهد على الحضور الدائم لهذه العملية. يُذكَر أن الشهرة التي حقَّقها الفيلم الوثائقي «القرموط» (Catfish, 2010) والدراما الوثائقية The Catfish (TV Show ,2012 لتلفاز الواقع المستوحاة من الفيلم، الذي يكشف فيه المشاركون هويات مزيفة؛ كانت سببًا في إحياء الاهتمام بقضية حجم الخداع المتعلق بالهوية على شبكة الإنترنت.

وفي هذا السياق، فما زال تناول الادِّعاء بأن الهويات تتسم بانسيابية على شبكة الإنترنت أكبر من خارجها يحدث من عدَّة زوايا أخرى. فمثلًا، كتب باحثان عن الظاهرة التي أطلقا عليها اسم «هويات الويكي» (wikidentities)، زاعمينِ أن مواقع التواصل الاجتماعي مثل «فيسبوك»، ومايسبيس (MySpace) جعلت الشباب خاصة يتخذون رؤية مرنة لهوياتهم. تشير الدراسة إلى أن الشباب غالبًا يعملون بالتعاون مع أصدقاء على شبكة الإنترنت لاختلاق صور ذاتية لأنفسهم كما يفعل مساهم في «الويكيبيديا» عندما يُقدِّم إضافةً إلى مشروع مشترك (Mallan and Giardina, 2009). وهذه ليست ظاهرة غير مسبوقة؛ إذ يوجد تراث ثري عن موضوع تمثيل الهويات على مرِّ الزمان. وقد مضت عصور في الماضي، كان فيها اختلاق الهوية مشروعًا جماعيًّا واعيًا فاعلًا على نحوٍ أكبر ممَّا يحدث اليوم على مواقع التواصل الاجتماعي. فقد كانت ما تُسمَّى الهويات الفردية نتيجة اختلاق وتوجيه اجتماعي. أمَّا تشكيل الهوية على شبكة الإنترنت فيتطلَّب النظر إلى شروطه الخاصة، ويبدو حقًّا أنه يأتي بشيء جديد إلى هذا العالَم، على الأقل مقارنةً بالأجيال القريبة.

(3) نوع من الأسماك يشبه الثعبان، ويمتاز بلزوجة ملمسه، ويصعب الإمساك به باليد. من الطريف أن هذا التعبير قد استُخدِم في الأوساط الشعبية العربية قبل عصر الفضاء الإلكتروني لوصف الأشخاص المراوغين. المترجمة

لكن الحديث عن سهولة الهوية وليونتها في مجالات معينة من الثقافة الرقمية لا بُدَّ أن يوازيه دائمًا حقيقتان؛ أولاهما: صعوبة نبذ هويات كوَّنها التاريخ وعمليات تطبيع اجتماعي عميقة. فالجميع عُرضة لقوى خارج الإنترنت، حتى مَن يعيشون فيه، والأبرز بينها تأثير مَن ربوهم، ومَن علَّموهم، وغيرهم، أولئك الأشخاص الذين تأثَّروا عميقًا بحشد من القوى أعتى من أيِّ إنترنت عالمية كاسحة. والحقيقة الثانية: اتصاف هوياتنا دائمًا بأنها تمثيلية وجماعية ومتغيرة؛ فنحن نتعامل مع رؤسائنا بالشخصية نفسها التي نتعامل بها مع أُسرنا وآبائنا وأصدقائنا الذين في مثل عمرنا. لقد كانت التفاعلات المعقدة مع الآخرين هي ما يُحدِّد ملامح هويتنا، ولم يحدث ذلك في غرفة هوية منعزلة.

لا شكَّ في أن «عوالم» الإنترنت تُوفِّر ساحات غنية لتجريب الهوية فيها، وليس الاختلاف بالشيء غير الشائع، بل إن نحو 25% من الأولاد المراهقين، و30% من البنات المراهقات يقولون إنهم كتبوا بيانات مختلفة عن أنفسهم، وعن أعمارهم تحديدًا، على شبكة الإنترنت (Madden 2013). ولكن، لا ينبغي لنا أن نبالغ بخصوص عددِ مَن يخوضون تجارب جادَّة تتعلق بإخفاء هويتهم الحقيقية، ولا أن نغالي في التعبير عن عمق التحوُّل الذي يستتبع هذه التصرفات بخصوص الهويات الاجتماعية الأساسية. إننا ببساطة لا نعرف –حتى الآن– عمق الهويات التي يعاد تشكيلها نتيجة التخفي على شبكة الإنترنت، وتبديل الرداء الثقافي الرقمي، وغير ذلك من أشكال اللعب بالهوية.

ثمَّة أثر أكبر في الهوية على شبكة الإنترنت ربما يأتي من حزم الصيغ التي ما انفكت تُنشِئ أنواعًا من الويب. وها هو جارون لانيير (Jaron Lanier) يثبت لنا بالتفاصيل –بوصفه من أوائل منشئي الواقع الافتراضي– أن المستخدمين يتعرَّضون لخطر التحوُّل إلى مجرد أدوات في حال لم ينتبهوا للوسائل التي تُشكِّل بها الويب

هويتنا وأسلوب تفكيرنا عن طريق قرارات التصميم[4] والنماذج وغيرها من العمليات الفنية التي لا تظهر على سطح الويب، على نحوٍ طفيف غير مُلاحَظ، أو حتى على نحوٍ ليس خفيًّا (Lanier, 2010). فالتحضيرات الفنية -بسبب الخوف من زيادة التكلفة، أو الكسل، أو مجرد القصور الذاتي- تميل غالبًا إلى «حبس» عناصر تصميم كثيرة تحدُّ بصرامة الإبداع الإنساني في الفضاءات الرقمية. فمثلًا، توجد صور ثانوية من انتحال الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي، تخفي حقيقة أن مُحدِّدات الهوية تُعرَّف تعريفًا ضيقًا جدًّا؛ لأنها بصورة جزئية تخاطب المهندسين، بصرف النظر عن درجة دقتها في تمثيل مستويات الشعور والفكر الإنساني.

يدعو لانيير إلى درجات أعمق من مشاركة المستخدمين الدائمين في قرارات التصميم؛ لأن خبرته في الهندسة علَّمته أن الفنيين جميعًا يُمثِّلون - في أحسن الأحوال- قطاعًا اجتماعيًّا ضيقًا من البشر، وأن دافعهم إلى عمل الأشياء يستند غالبًا إلى منطق فني، ولكن هذا المنطق ليس دائمًا إنسانيًّا. وقد عبَّر لانيير عن قلقه من أن غزارة المصدر وكثرة المغذين الهواة (للويكي) يمكن أن تُمثِّل قيمة كبيرة؛ فالإطار الأخلاقي المحيط بها ينطوي على خطر تقليص تفرُّد صوت الإنسان الفرد، وعدم احترام أشكال المعرفة الخبيرة التي اكتُسِبت بالعمل الشاق، ولا يمكن (ولا ينبغي) أن يحلَّ محلَّها «عقل خلية النحل». وبالرغم من عدم استخدامه عبارة «التحوُّل إلى غزارة مصادر الهوية»، فإن هذا ما يقصده. والحقيقة أن كتاب لانيير يشبه رسالة هجاء طويلة (يصفها في العنوان الفرعي بالبيان) تصيب بقدر ما تخطئ عيوب الثقافات الرقمية، لكنه حافل بالأفكار العميقة عن مخاطر ضياع الهوية في الفضاءات الرقمية؛ لذا يجب منافسة هذه الأفكار ومناقشتها بصورة علنية.

(4) قرارات تُحدِّد ما يُطرَح من تصاميم لأيِّ برامج أو تطبيقات، وما إلى ذلك على شبكة الإنترنت. المترجمة

هل عملت شبكة الإنترنت على قتل الخصوصية؟

إن فعل «يقتل» هو فعل قوي جدًّا. غير أن ما لا يمكن إنكاره هو أن شبكة النت -بالاشتراك مع التقنيات الرقمية الأخرى- قد وجَّهت للخصوصية ضربة قاسية. صحيح أن مفهوم «الخصوصية» نفسه حديث العهد نسبيًّا (ففي القرى والمدن الصغيرة التي كانت طوال تاريخها موطن عدد كبير من البشر، كان صعبًا (ولا يزال) تحقيق الخصوصية)، لكننا اعتدنا في العالَم الحديث (أي منذ القرن السادس عشر، أو نحو ذلك) درجة عالية من الخصوصية الشخصية. بالرغم من ذلك، ونتيجةً للسرعة الفائقة في العصر الرقمي؛ فقد تآكلت الخصوصية كثيرًا. تُقدِّم «ويكيبيديا» تعريفًا عامًّا مفيدًا للخصوصية، هو: «قدرة الشخص أو الجماعة على عزل أنفسهم، أو حجب معلومات عنهم؛ ما يساعد على الكشف عن أنفسهم بصورة انتقائية». ولا شكَّ في أن التأكيد المزدوج في هذا التعريف الذي يشمل الفرد والجماعة هو أمر مهم هنا؛ فالتفكير في الخصوصية يعني التفكير في كلٍّ من الخصوصية الشخصية، وما يمكن أن نُطلِق عليه اسم الخصوصية المدنية أو السياسية.

صحيح أن الأفكار المعينة عمَّا يجب (أو لا يجب) أن يكون خاصًّا تختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر، غير أن القضية الأساسية هنا هي النصف الثاني من التعريف (ما يساعد على الكشف عن أنفسهم بصورة انتقائية). فالخصوصية تتعلق بالتحكم في إطلاع الآخرين على بيانات عن نفسك، أو عن الجماعات التي تنتمي إليها. وبحسب هذا التعريف، وبغض النظر عمَّا يرغب شخص معين في أن يجعل أمرًا ما خاصًّا وشخصيًّا، فقد تآكلت الخصوصية كثيرًا عن طريق استخدام التقنية الرقمية. وهذه حتمًا مشكلة؛ لأن الخصوصية عنصر رئيس في تكوين ملامح هويتك، وتقديم نفسك إلى العالَم، ولأن الخصوصية أيضًا عنصر رئيس من عناصر الحرية السياسية، ولا سيما حرية التعبير، وحرية التجمع، وحق الاحتجاج.

يبدو أن الأفكار المتعلقة بتشكيل الخصوصية تتغير في العصر الرقمي، وقد تُمثِّل الأفكار المختلفة عن الخصوصية إحدى أكبر الفجوات بين «المواطنين الرقميين» و«المهاجرين الرقميين». ويبدو أيضًا أن الشباب غالبًا لا يشاركون والديهم مخاوف فقدان أنواع معينة من الخصوصية؛ فالأشخاص ممَّن تقل أعمارهم عن الثلاثين عامًا هم أكثر انفتاحًا واستعدادًا لمشاركة تفاصيل دقيقة كانت خاصة يومًا ما عن حياتهم على مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها من الوسائط العامة. وفي بعض الأحيان، يُخيَّل أن الأفكار الشخصية التي كانت تُحفَظ في أحد الأيام في المذكرات السرية أصبحت الآن مادة خصبة للعرض العام. ففي مسح أعدَّه باحثو مركز بحوث «بو» (Pew) عام 2012م، تَبيَّن أن نحو 81 % من الآباء لديهم مخاوف حيال الخصوصية على شبكة الإنترنت، وأن أقل من 10% من أبنائهم في سن المراهقة يشاركونهم هذه المخاوف، بالرغم من أن عددًا معتبرًا من الشباب اتخذوا إجراء ما لحذف (أو عدم تحميل) معلومات معينة يرغبون الحفاظ على خصوصيتها (Madden, 2013 59–60). بالرغم من ذلك، فإن إفشاء المعلومات الشخصية يُعَدُّ إحدى الشكاوى الرئيسة لعدد كبير من الشباب مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي. وهذا ليس تناقضًا بالضرورة؛ إذ يبدو أنه في حين ينشر الشباب علنًا (على الإنترنت) تفاصيل أكثر دقة عن حياتهم ممَّا فعل جيل آبائهم، فإنهم ما زالوا يهتمون كثيرًا بكشف بعض الأشخاص عن أمور معينة، مثل إفشاء صديقٍ سرًّا عن انجذاب شخص ما إلى شخص آخر.

ليس سرًّا أن الويب هي مكان للكشف المبالغ فيه عن الذات؛ سواء أكان ذلك عمدًا، أم من غير قصد، ولكن قِلَّةً تدرك التكلفة الكاملة التي يمكن أن تستتبع ذلك الكشف. ففي كل يوم يفقد مئات الأشخاص وظائفهم، أو يخفقون في الحصول على وظائف، أو يفشلون في دخول كلية ما، ويفقدون حقوق الحضانة، ويتعرَّض زواجهم للخطر، أو يصبحون ضحية أذى أو جريمة بسبب المعلومات التي تُجمَع من مواقع شبكاتهم الاجتماعية. وبالمقابل، يستخدم رجال الشرطة بيانات من صفحات التواصل الاجتماعي في اصطياد المجرمين، في حين يستفيد اللصوص من نشر البيانات التي

تتعلق بالإجازات في تحديد الوقت المناسب للسطو على المنازل. ولا يخفى على ذي لُبٍّ أن إعدادات «الخصوصية» على مواقع التواصل الاجتماعي تدفع الناس كذبًا إلى الاعتقاد بأن هوياتهم، أو صورهم، أو تاريخ تصفُّحهم، أو أيِّ معلومات أخرى محمية أكثر ممَّا هي حقيقةً؛ ففي كل مرة «تُعجَب» بشيء على «الفيسبوك» -مثلًا- فإنك تُعرِّض نفسك لفحص دقيق يقوم به صانعو المُنتَج الذي «أُعجِبت» به.

يحدث هذا غالبًا نتيجة الفشل في تذكُّر مدى سهولة خروج أيِّ تواصل بسيط على الإنترنت عن السيطرة، بصورة حلزونية (أو فيروسية). لنأخذ -مثلًا- حالة «فتاة الأخوية النسائية» الأمريكية التي أرسلت رسالة إلكترونية مُخِلَّة إلى «أخواتها» بجامعة ميريلاند تحثهم فيها على أن يتعايشن اجتماعيًّا بصورة أكبر، وعلى نحوٍ واضح -ضمنًا- أن يستجبن جنسيًّا لأعضاء شركائهن في الأخوية. وما هي إلَّا ساعات حتى انتشرت الرسالة على فضاء المُدوَّنات كالفيروس، وسبَّبت جلبة على مستوى العالَم، وأدَّت إلى عشرات الصور من المحاكاة التهكمية الساخرة. وقد امتدحها بعض الأشخاص لأسلوبها المبدع في الكلام الفاحش، مع حضور السخرية في هذا المديح، لكن العبارة التي كان يُظَن أنها أكثر أصالة (عبارة تستخدم مفردة تدل على نوع من الضربات في كرة القدم)، والتي تشبه -صوتيًّا- تعبيرًا سوقيًّا يشير إلى الأعضاء الجنسية الأنثوية تَبيَّن أنها ليست من كلامها، وإنما هي تعبير شائع للأسف.

أسفر عرض اسم الفتاة علنًا عن اختراق حسابها على موقع «تويتر»؛ إذ كانت حِدَّة كلامها الذي لا يتفق مع مبادئ الأخوية أخف من التعليقات العنصرية التي كتبتها على هذا الموقع. لم تعانِ الفتاة البائسة (لم تكن بريئة تمامًا على أيِّ حال) معاناة شخصية فحسب، مثل إقصائها من أخويتها، بل أكَّدت أمام الملايين أسوأ الصور عن أقرانها. والواضح أن انتشار أمر ما كالفيروس ليس شيئًا محمودًا دائمًا، بالرغم من أنه في تحوُّلٍ آخر غريب في القصة، أدَّى كلامها أيضًا -مثلما يبدو- إلى عرض بعض الوظائف عليها (Gross, 2013). والحقيقة أنه يوجد مئات الأمثلة المشابهة لهذا النوع

من العرض العام غير المتعمد، الذي قد يؤدي إلى عواقب أسوأ في بعض الأحيان، مثل فقدان الوظيفة، وحتى الانتحار.

يضاف إلى ذلك، وجود أساليب لا تقل إزعاجًا، وأكثر تنظيمًا، وأقل وضوحًا تخترق بها شبكة النت الخصوصية. وقليل من المستخدمين يعلم -مثلًا- أن مواقع التواصل الاجتماعي الخاصة بهم تتعرَّض للتمشيط والتمحيص بصورة منتظمة من الباحثين عن البيانات الذين يبيعون للشركات معلومات عن عاداتهم والأشياء التي يحبونها أو يكرهونها. وعلى هذا، فإن قدر البيانات والمعلومات الذي جمعته محركات البحوث ومواقع الشبكة ومواقع الشبكات الاجتماعية وغيرها من الفضاءات الرقمية عن الأفراد، ضخم إلى درجة مذهلة تجعل جيمس بوند يخجل، ويثير غيرة إم 16 (جهاز الاستخبارات البريطاني M16)، و إف بي أي (مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI)، غير أن هاتين الجهتين تستخدمان هذه المعلومات في التجسس علينا بصورة قانونية أو غير قانونية.

يعيش اليوم معظم الناس في العالَم الصناعي/ الإلكتروني -بعلم أحيانًا، وغالبًا من دون علم- في عصر من المراقبة الكثيفة غير المسبوقة. صحيح أن البيروقراطيات الحديثة تجمع كَمًّا ضخمًا من المعلومات عن المواطنين منذ أمد طويل، لكن شبكة الإنترنت أحرزت معدلًا هائلًا من النمو في كَمِّ المعلومات المتوافرة ونوعها. فالشخص العادي الذي يعيش في مدينة حديثة يتعرَّض للتصوير فوتوغرافيًّا أو بالفيديو عشرات المرات يوميًّا، وكاميرات المراقبة منتشرة في كل مكان، فإذا لم تكن متوافر ة فإنه توجد أنواع كثيرة أخرى من الفحص الرقمي الذي يقتحم حياة الناس (Andrews 2012). ومهما تتخيل قدرات المراقبة في التقنية الحديثة فإن الحقيقة أسوأ ممَّا تتخيل. فالشباب الذين نشؤوا في عصر المراقبة هذا يرونها في الغالب أمرًا طبيعيًّا، لا خرقًا كبيرًا للتراث الديموقراطي.

فهل يجب أن ننزعج من حقيقة أن أمازون وغوغل يعرفان عنَّا أكثر ممَّا تعرفه أمهاتنا أو أعز أصدقائنا؟ هل يجب أن نقلق من احتمال مراقبة موظفي الحكومة كل حديث لنا بالهاتف الخلوي؟ هل يجب أن يقلق الشباب من قيام أصحاب الأعمال المحتملين ومكاتب القبول بالمدارس وأمهاتهم بالتنقيب في صفحات «الفيسبوك» بحثًا عن معلومات قد تُسبِّب لهم مشكلات كبيرة؟ إن كثيرًا من المستخدمين يعرفون ملفات تعريف الارتباط الكوكيز (cookies) المتصفح[5]، لكن قِلّةً تعرف كوكيز الزومبي (zombie[6])، وهي الكوكيز التي يمكن تنصيبها على محرك بحث في شبكة الويب، اختير بحيث لا يستقبل أيَّ كوكيز، ويمكنها أن تتتبَّع سرًّا زياراتك كلها لأيِّ موقع عن طريق محركات البحث لديك، ولا يمكن التخلص منها بحذف الكوكيز العادية. وفي هذا السياق، يعرف معظم الناس أن الحكومات يمكنها أن تتنصت على مكالمات الهاتف الخلوي، ولكن قليلًا منهم يعرف أنها قد تفتح سمَّاعة (ميكروفون) الهاتف الخلوي من بعدُ لتستمع إلى المكالمات التي تجرى على الهاتف، حتى لو كان غير متصل بالنت (McCullagh and Broache, 2006).

لقد عملت التقنية الرقمية على جعل انتهاك الخصوصية يصل إلى مستويات غير مسبوقة. فالشبكات الرقمية تتتبَّع كل عملية نقوم بها ببطاقات الائتمان، وترصد حركاتنا كلها على شبكة الإنترنت. وفي بعض الحالات، فإن كل ضغطة زر نقوم بها، تدخل بنك معلومات أو أكثر، قد نعرف عنه القليل، أو لا نعرف عنه شيئًا، وتكون سيطرتنا عليه ضعيفة، إذا كانت ثمَّة سيطرة أساسًا. قد يبدو لطيفًا أن تملك أمازون

(5) إنترنت كوكيز: مجموعة صغيرة من المعلومات في صورة نص تُحمَّل على حاسوبك عندما تزور مواقع ويب متعددة. وقد تأتي من موقع الويب نفسه، أو من مقدمي لافتات الدعاية، أو غير ذلك من الرسوم التي تكون في صفحة الويب. وعلى هذا، فإن زيارة موقع واحد على الويب قد يسفر عن تحميل عدد من الكوكيز، كل منها من مصدر مختلف، وهذا يعني أنه قد تأتيك كوكيز من وكالات إعلانية كبرى من دون أن تزور صفحتها ألبتة. المترجمة.

(6) كوكيز تعيد تحميل نفسها بعد حذفها. المترجمة.

القدرة على التنبؤ بالكتب الجديدة التي ستحبها، ولكن هذه المعرفة التي يستخدمها أُناس أقل دقة يمكن أن تعني انتهاكًا شديدًا لحقك في أن تقرأ ما تريد من دون أن يعرف ذلك أيُّ شخص آخر. أمَّا الجرائم الإلكترونية (مثل سرقة الهوية) فهي أكثر طبقة واضحة مرئية من بين طبقات عدَّة للاستخدام المريب المشروع (أو غير المشروع) لبياناتٍ تُدوِّن تفاصيل حياتنا. ومن وجهة نظر كثيرين، فإن ذلك يتساوى في الأهمية مع الاستخدامات غير الإجرامية (التي لم تحدث بعدُ) التي تضع لها الشركات هذا القدر من البيانات التي تُجمع عنَّا كل يوم. وبينما يُهدِّد هذا تراث الخصوصية في الدول الديموقراطية فإنه قد يُمثِّل تهديدًا قاتلًا للقوى التي تسعى إلى توسيع الديموقراطية والحرية في المجتمعات غير الديموقراطية. وتكمن المشكلة في قلب الويب في معظم المصادر المستخدمة على نطاق واسع، مثل: غوغل، وأمازون، وفيسبوك. فهذه المواقع وما شابهها وصلت بالظاهرة التي تُعرَف بالرقابة المنظمة للسجلات الإلكترونية لأنشطة شخص ما (dataveilance) إلى مستوى جديد تمامًا (Vaidhyanathan, 2013).

وكما هو الحال في أمور أخرى متعددة، فإن الممارسات التي كانت محظورة في مواقف ثقافية سابقة تبعث مرة أخرى على الإنترنت. ومن ذلك التمييز الشبكي «الويبلاينينج» (weblining)؛ وهو تشكيلة رقمية على ممارسة قديمة غير مشروعة تُعرَف باسم «امتناع المصارف عن إقراض طبقة معينة من العملاء redlining». وكان هذا (ولا يزال في بعض المناطق) تصرُّف يمنع المقيمين في الأحياء التي فيها كثافة من السكان الملونين من تلقي قروض الرهن؛ ما أقنع تجار التجزئة بإقامة مشروعاتهم التجارية في مناطق أكثر ثراء، وشجعهم على حرمانها من فرص العمل، والتأمينات، والرعاية الصحية، وغيرها من الخدمات الأساسية للأفراد والعائلات التي تعتمد على المكان في أحياء داخل المدينة. يُعرَف «الويبلاينينج» أيضًا باسم «تنميط البيانات»؛ إذ إنه يستعمل معلومات جُمِعت من الإنترنت لتنميط المستخدمين،

ومنحهم منتجات وخدمات معينة. إنه الجانب الآخر غير العادل من المتعة التي قد تشعر بها عندما تُحدِّد حسابات أمازون بدقة كتابًا تود شراءه.

في الواقع، يصعب على شركات الأجهزة الإلكترونية مقاومة إغراء جمع بيانات لا ضرورة لها. فقد ظهر –مثلاً– أن شركة «لا تفعل الشر» للوسائط الرقمية (غوغل) تمارس نوعًا من انتهاك الخصوصية يشبه فعل الشر كثيرًا. ففي عام 2012م، أُجبِرت غوغل على التخلص من كَمٍّ هائل من البيانات التي جمعتها عندما كانت تُحدِّث تطبيق خرائطها، وقد شمل ذلك كل المعلومات التي لا صلة لها بمشروع الخرائط، والتي كان يمكن بيعها لمعلنين وسطاء. ولأن موظفي غوغل اتجهوا إلى التصوير الفوتوغرافي ورسم المباني عند إنشاء «منظر الشارع لغوغل» (Google Street View) (بوصفه تحديثًا لتطبيق خرائط غوغل المستخدم على نطاق واسع)؛ فقد صُوِّر آلاف الأشخاص من دون علمهم، وأحيانًا في مواقف فاضحة أو خطرة. وبالمثل، فقد جمع بعض هؤلاء الموظفين خلسةً أنواعًا أخرى من المعلومات الشخصية، من بينها عناوين البريد الإلكتروني، وكلمات السر لملايين الأشخاص في المملكة المتحدة، علمًا بأن هذه المعلومات لا تمت بأيِّ صلة لعملية رسم الخرائط. وقد كُشِف عن ذلك حديثًا بعد الاعتذار والزعم بمحو هذه البيانات، وفي الواقع، فإن غوغل عَزَتْ معظم ذلك –مثلما ادَّعت– إلى خطأ بشري. وحتى قبل الكشف عن ذلك، كانت منظمة الخصوصية الدولية (Privacy International)، التي مقرُّها المملكة المتحدة، والتي تهدف إلى حماية الحق في الخصوصية بمختلف أنواعها حول العالَم، قد منحت غوغل أسوأ ترتيب لديها، وهو معادية للخصوصية.

يوجد جدل مشابه حول «فيسبوك» وغيره من مواقع شبكة العمل الاجتماعية؛ إذ يجمع «فيسبوك» كَمًّا هائلًا من المعلومات، ويمنح أعضاءه انطباعًا كاذبًا بأن ضوابط الخصوصية تحمي هذه المعلومات، ولكن الكثير من مستخدمي «فيسبوك» وجدوا أن أصحاب الموقع قد انتهكوا حقهم في الخصوصية بمنع خيارات النشر. وعلى هذا، فإن

الإقصاء، والحرمان من التأمين، وفقدان الوظائف، وفشل العلاقات، وحتى الانتحار؛ كل ذلك نتج من تداول معلومات مظنة أنها خاصة وسرية. أمَّا موظفو «فيسبوك» التنفيذيون فقد استجابوا بجهود نُشِرت على نطاق واسع لإحكام ضوابط معينة على نقاط دخول المعلومات، لكن ذلك لم يرضِ المستخدمين كافةً. فالانفتاح المتناقض الموجود في النت طفا على السطح من جديد؛ وذلك أن المنظومة التي صُمِّمت أصلًا للتحكم في المعلومات السرية جدًّا كانت حقيقةً مسامية بطبعها، منظومة متعددة المداخل حيث الحفاظ على السرية شبه مستحيل. واليوم، إذا كانت أكثر المؤسسات تعقيدًا والحكومات والجيوش تجد صعوبة في الحفاظ على السرية بسبب الإنترنت (مثل: الجريمة الإلكترونية، والحرب الإلكترونية، والتسريبات «ويكيليكس»)، فلك أن تتخيل كيف يكون الحال مع المواطنين العاديين ممَّن هم أكثر قابلية للاختراق.

من المُلاحَظ وجود تناقض رئيس، أو حالة تنظيمية يتبارى فيها مديرو موقع التواصل الاجتماعي مع مستخدمي موقع التواصل. وفي الواقع، فإن خصوصيتك هي السلعة التي تبيعها هذه المواقع. ففيسبوك وتويتر وبنتريست (Pinterest) وغيرها تجني المال من بيعك للشركات (تحديدًا بيع اسمك، وسنك، ونوعك، وعرقك، وتوجُّهك الجنسي، وعدد كبير من المفضلات الشخصية). وما دام الحال هكذا، فهذا يعني أن لدى شركات التواصل الاجتماعي إصرارًا شديدًا على الدفع باقتحام لخصوصيتك إلى أكبر مدى طالما سمح المستخدمون بذلك. ولأن معظم عملية جمع البيانات لديهم تحدث خلف الكواليس، ولا تتأثر بإعدادات الخصوصية؛ فلا يقاوم سوى عدد قليل من المستخدمين. ومن دون احتجاج أعداد كبيرة، تصبح المقاومة بلا طائل. ويمكن للكائن الإلكتروني الخارق القول إن معظمنا متواطئ عن غير قصد في الانتهاكات المتعددة التي تحدث كل يوم لخصوصيتنا. ولمَّا كان معظم هذا النشاط خفيًّا فإنه ليس صعبًا إظهاره ما دمت واعيًا بالمشكلة. فمثلًا، إذا أردت فقط أن تعرف لمحة عن قيمة بياناتك الشخصية، ومَن يحصل عليها، فإنه يمكنك استخدام

تطبيقات التصفُّح (مثل «برايفسيفيكس» Privacyfix) التي قد تساعدك على الدخول خلف ستار الساحر الرقمي.

إن معظمنا يعرف شبكة الإنترنت بأشياء عدَّة محددة، ولكن مجموعة صغيرة جدًّا هي التي تعرف الشبكة بوصفها أعظم أداة رقابة استطاع الإنسان اختراعها. فقد كُشِف في صيف عام 2013م عن استخدام عظيم غير مشروع للنت في جمع المعلومات، قامت به إدارة الأمن القومي الأمريكي؛ ما يُؤكِّد أن خصوصية المواطنين العاديين قد انتُهِكت كاملةً. من بين ما كُشِف عنه حقيقة أن بعض الشركات الكبرى للتقنية والاتصالات (مثل: إيه تي آند تي (AT&T)، وفيريزون (Verizon)، ومايكروسوفت، وآبل، وسكايب، وياهو، ويوتيوب، وغوغل، وفيسبوك) يُدفَع لها حقًّا من أموال دافعي الضرائب لتقديم بيانات مواطنين ليس لهم صلة واضحة بأيِّ سلوك إجرامي أو مشبوه.

يوجد تقدير متحفظ يشير إلى أن 75% من بيانات الإنترنت الوصفية كلها قد أصبحت متوافرة، وذلك بجمعها من حوارات غرف الدردشة، والرسائل الإلكترونية، وتاريخ المتصفح، والمكالمات الصوتية عن طريق الإنترنت (VoIP)؛ ما يضع ملايين المستخدمين/ المواطنين العاديين تحت رقابة غير مسبوقة. ويشير النقَّاد من مختلف الأطياف السياسية إلى أن هذا النوع من جمع البيانات لا يتفق أبدًا مع الحريات الديموقراطية.

صحيح أن قدرًا كبيرًا من انتهاك الخصوصية لم يعد يخضع لسيطرة الأفراد اليوم (بالرغم من أن بعض برامج منْع التتبُّع قد تُحجِّم الرقابة)، ولكن النقَّاد يرون أنه يوجد الكثير ممَّا يمكن عمله بصورة جماعية. فالوسيط الذي يفتخر بنفسه في التفاعل مُعرَّض لاتهامات بأنه لا يستجيب لمستخدميه المتفاعلين عندما يحتجون بأعداد كبيرة؛ فزيادة أعداد الناس دليل على جدية القضايا المتعلقة بالرقابة. والشركات الإلكترونية الكبرى المسؤولة عن جعل المعلومات الشخصية متوافرة للأصدقاء، والأسرة، والأعداء، ومعلني الشركات، وشركات التأمين، وأصحاب الأعمال؛ هي أيضًا

همزة وصلة رئيسة في جعل البيانات متاحة للحكومة. فحين تعرَّضت كل صور غوغل وفيسبوك للتحدي فإنها واجهته بتغيير مهم في الشكل لا المحتوى، بحيث عمدت إلى تغييرات ثانوية في سياسات الخصوصية. لهذا، يرى مؤيدو الخصوصية أنه من دون ضغط العملاء ستستمر هذه الشركات في هضم حق الأفراد والجماعات بالتحكم في نشر المعلومات، أو عدم نشرها. أمَّا الوجه الآخر لهذه العملة، وهو حق المواطنين في معرفة ما توصَّلت إليه الحكومة، والحق في ديمقراطية شفَّافة، فسنتناوله في الفصل السادس.

أمَّا المجال الثاني لاهتمام هؤلاء الذين يناهضون تآكل الخصوصية فيُركِّز على تعزيز سياسات الحكومة الحالية (مبادئ قانونية)، وفرض ممارسات الحكومة التي انتهكت المبادئ في كثير من الأحيان بالحصانة. وحتى في الدول التي توجد فيها قوانين للخصوصية، فإنها تكون قوانين ضعيفة جدًّا فيما يتعلق بالوسائط الجديدة. تُقدِّم المحامية وأستاذة القانون لوري أندروز (Lori Andrews) مجموعة من الأمثلة المؤلمة التي تُبيِّن كيف أن غوغل وفيسبوك وغيرهما من شركات التقنية تُحرِّض على الانتهاك الكبير للخصوصية؛ فشركات التأمين تفحص صحتك وعاداتك، وخدمات بطاقات الائتمان تفحص وضعك المالي، والمحامون يدرسون أيَّ نوع من المحلفين يمكن أن تكون، ووجهات إنفاذ القانون تجمع تحريات عنك من دون إذن قانوني، وآلاف الصور الأخرى من كشط البيانات؛ كلها أمور ممكنة في عالَم الوسائط الجديدة (Andrews, 2012).

وفي هذا السياق، اكتسبت عبارة «الجريمة بالتبعية» قوة جديدة تمامًا في عالَم التواصل الاجتماعي، هي «إضافة أصدقاء إلى حسابك». فمثلما أوضحت أندروز وآخرون، فإن القوانين لم تعد مواكبة للوسائط الجديدة؛ إذ توجد حاجة إلى قوانين جديدة لحماية الخصوصية، وتحديدًا في الفضاءات الإلكترونية. وقد قدَّمت أندروز نفسها نسخة طريفة لما يمكن أن تكون عليه الوثيقة الجديدة لحقوق الخصوصية على

الإنترنت، انظر الشكل (3– 1). وسواء كان «دستورها» الخاص طريقة مثالية أو لا، فالواضح أنه توجد ضرورة لتبديل قوانين الخصوصية في معظم أنحاء العالَم لمواكبة المستجدات في تقنية المعلومات والاتصالات، فضلًا عن الحاجة إلى تشريع جديد إذا كان لزامًا الحفاظ على وجود بعض مظاهر الخصوصية الشخصية والسياسية في عالَم يتحوَّل إلى فضاء رقمي بسرعة كبيرة.

الشكل (3– 1): دستور الشبكة الاجتماعية.

لوري أندروز© أعرف مَن أنت، ورأيتُ ما فعلتَ: الشبكات الاجتماعية وموت الخصوصية (Lori Andrews,© I Know Who You Are and I Saw What You Did: Social Networks and the Death of Privacy, Simon and Schuster, 2013).

نعلن نحن شعب دولة «الفيسبوك» من أجل إيجاد إنترنت أكثر مثالية، ولحماية حقوقنا وحرياتنا الأساسية، واستكشاف هوياتنا وأحلامنا وعلاقاتنا، والحفاظ على قدسية ذواتنا الرقمية، وتأكيد إمكانية الوصول العادل إلى التقنية، والحد من التمييز العنصري، وتذويب الفوارق، وإعلاء المبادئ الديموقراطية والمصلحة العامة؛ هذه الحقائق البدهية:

1. **الحق في التواصل**

الحق في التواصل عملية رئيسة مهمة لنمو الأفراد، وللخطاب السياسي، والتبادل الاجتماعي؛ لذا لا يجوز لأيِّ حكومة أن تحرم أيَّ فرد من الحق في التواصل، أو تراقب الحوارات على الإنترنت، أو تُصنِّفها بحسب المصادر أو المحتوى.

2. **الحق في حرية الكلام وحرية التعبير**

لا يجوز حرمان أيِّ فرد من الحق في حرية الكلام وحرية التعبير (للفرد أيضًا الحق في استخدام اسم مستعار) ما دام الكلام لا يُحرِّض على إلحاق ضرر خطر وشيك، أو تشويه سمعة شخص ما. ويجب منع أصحاب الأعمال والمدارس من الوصول إلى صفحات الشبكة الاجتماعية، أو اتخاذهم إجراءات تُعاقب الآخرين بناءً على ما عبَّروا (أو كشفوا) عنه على الشبكات الاجتماعية، إلَّا في حالات إلحاق ضرر وشيك بشخص آخر.

3. الحق في سرية المكان والمعلومات

يجب تأكيد الحق في سرية المعلومات الشخصية والحسابات والأنشطة المرتبطة بها، ولا يجوز التصرف في البيانات المستمدة منها. يشمل الحق في الخصوصية الحق في تأمين المعلومات، وتأمين المكان بغض النظر عن إعدادات الأمن الفاعلة، أو جهود الفرد في حماية نفسه الرقمية؛ فالشبكات الاجتماعية أماكن شخصية خاصة.

4. الحق في سرية الأفكار والمشاعر والآراء

تُوفِّر الشبكات الاجتماعية مساحة تتيح للأفراد التطور والتعبير عن أنفسهم، ولا يجوز للمؤسسات، أو الحكومات، أو أصحاب العمل، أو شركات التأمين، أو المحاكم استخدام أفكار الشخص، أو مشاعره، أو آرائه ـــ وكذا الصفات التي يضفيها عليه الآخرون ـــ ضده.

5. حق المرء في التحكم في صورته

يجب منح كل فرد القدرة على التحكم في صورته على أيِّ شبكة اجتماعية، ويشمل ذلك التحكم في الصورة التي تنشأ عن طريق تجميع البيانات، ولا يجوز استعمال صورة الشخص خارج الشبكة الاجتماعية لأغراض تجارية، أو أيِّ أغراض أخرى من دون موافقته، ولا يجوز أيضًا استخدامها في شبكة الإنترنت لتحقيق مكاسب تجارية أو غيرها من دون موافقته.

6. الحق في محاكمة عادلة

لا يجوز جمع الأدلة من الشبكات الاجتماعية إلَّا في حال تقديمها لمحاكمة جنائية عند وجود قضية محتملة، وبعد صدور إذن قضائي. ولا يجوز أيضًا جمع الأدلة للقضايا المدنية، أو تقديمها فيها ما لم يكن النشاط المقصود قد حدث على الشبكات الاجتماعية (مثل: تشويه السمعة، والابتزاز، وانتهاك الخصوصية، والتلاعب بالمحلفين). ولا يمكن أخذ أدلة من الشبكات الاجتماعية إلَّا لتقديمها في محاكمة إذا كانت ترتبط ارتباطًا مباشرًا بجريمة، أو اتهام في دعوة مدنية، وتفوق القيمة الإثباتية قيمة الضرر الواقع، ويكون للدليل صلة بالموضوع، وموثق على نحوٍ سليم، ويتفق مع ضوابط الإجراءات المدنية والجنائية كلها. وفي حالات

الحضانة، لا ينبغي أن تُقبَل معلومات الشبكة الاجتماعية إلَّا إذا كانت تُقدِّم دليلًا مباشرًا على احتمال إلحاق الضرر بالطفل.

7. الحق في المثول أمام هيئة محلفين نزيهة

يجوز أن يقوم المحلفون باتخاذ قرار في القضايا بناءً على الدليل المُقدَّم في المحكمة، لا المعلومات أو الاستنتاجات المستمدة من الشبكات الاجتماعية، أو استعلامات البحث، أو غيرها من المصادر.

8. الحق في اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة، والحق في الإعلان المُعَدِّ سلفًا

للفرد الحق في اتخاذ الإجراءات اللازمة التي تشمل الإعلان المُعَدَّ سلفًا، والقدرة على التحكم في معلومات الفرد على الإنترنت، وتصحيحها، وحذفها. ولا يجوز جمع أيِّ معلومات، أو تحليلها من دون الإعلان سلفًا. يشمل هذا الإعلان تفسيرًا لاستخدام المعلومات التي جرى جمعها، وتحليلها، وبيان الهدف من جمعها. ويتعيَّن وجود تحذير من التبعات المحتملة للموافقة على جمع معلومات معينة. لا يجوز أيضًا إنكار الاتصال بالشبكة الاجتماعية بناءً على قرار عدم الموافقة على جمع المعلومات، وتحليلها، أو نشرها. ويجوز منح الفرد الحق في معرفة هويات مَن بحوزته، أو مَن يستخدم معلوماته، وكذا الوصول إلى نسخة من المعلومات الخاصة به، والحصول عليها.

9. التحرر من التمييز

لا يجوز التمييز بحق شخص بناءً على أنشطته في الشبكة الاجتماعية، أو بياناته الشخصية، أو بناءً على جمع البيانات بصورة جماعية بدلًا من الاعتماد على صفات هذا الفرد الشخصية، ما لم تُقدِّم أنشطة الشبكة الاجتماعية دليلًا مباشرًا على جناية أو جنحة ما.

10. حرية الارتباط

للناس حرية الارتباط على الشبكات الاجتماعية، وحق الحفاظ على خصوصية ارتباطاتهم.

هل نتحوَّل إلى كائنات إلكترونية خارقة تفوق البشر؟

من الادِّعاءات القوية التي قيلت عن الفضاء أو الفضاءات الإلكترونية أنها أماكن للتحرر من الجسد حيث لا وجود فيها لأجسادنا الحقيقية، لكنني ما زلت أُردِّد أنه ما من إنسان يمكن أن يوجد في الفضاء الإلكتروني وحده؛ فأيُّ مستخدم لا بُدَّ أن يكون موجودًا في مكان ما في فضاء مادي جغرافي. حتى إذا كنتَ تقرأ النسخة الإلكترونية من كتابي هذا، فإنك تفعل ذلك من مكان ما، في منطقة زمنية ما. ربما تأخذك نشوة خيوط أفكاري اللامعة، لكن هذا هو ما يحدث نفسه عندما تقرأ كتابًا عاديًّا. فكثيرًا ما يتحدث الناس عن أن كتابًا ما جرفهم في «عوالم» جديدة، ولا سيما إذا كان من الأعمال القصصية الخيالية. وبالرغم من ذلك، لا يتصور أحد من الناس «فضاءات الكتب» كأنها خارج العالَم الحقيقي. وإذا فعلوا فإنهم دائمًا يتحدثون عن هذه الفضاءات بوصفها فضاءات الخيال، لا أكوانًا موازيةً.

وبالمثل، فمن المهم تذكُّر أن الفضاءات الإلكترونية خيالية؛ فنحن ندفع أنفسنا بخيالنا في الفضاء الإلكتروني، ولكننا نظل مقيمين في «العوالم» المادية. فمثلما تظل أجسادنا في أماكن محددة، يجب علينا تذكُّر أن الفضاءات الإلكترونية المرئية التي تظهر كالسحر على شاشاتنا تعتمد دائمًا على أجهزة لها واقع مادي، وتحمل ملامح تاريخ إنتاج قامت به أجساد بشرية.

توجد طائفة أخرى من الأعمال المهمة تتحدث عن الأجساد الموجودة في الفضاءات الإلكترونية بوصفها كائنات إلكترونية، ومن أهم النصوص المؤسسة في هذا الموضوع مقال دونا هراواي (Donna Haraway) الذي يحمل عنوان «مانيفيستو الكائنات الإلكترونية» (بيان تأسيسي) (A Manifesto for Cyborgs). يتناول هذا المقال الرائع أسئلة عمَّا يحدث لنا من تحوُّل بسبب خبرة امتزاج الآلات بالبشر حتى صاروا كائنات هجينة، نصفها إلكتروني (cybernetic)، ونصفها الآخر كائن

(organism) [1984] Haraway 2003 ;Gray 2002 ونتيجةً لجهود بعض الباحثين المبتكرين اليقظين (أمثال: هراواي، وشيلا ساندوفال (Chela Sandoval)، وكريس هابلز جراي Chris Hables Gray)؛ ألقت نظرية الكائن الإلكتروني الضوء على عدد من القضايا المهمة المتعلقة باستخدام مفهوم الهجين البشري الآلي لإسقاط الادِّعاءات المتحيزة جنسيًّا وعنصريًّا، ورهاب المثلية الجنسية في الطبيعة البشرية.

ولسوء الطالع، فقد أفضت هذه النظرية –على يد مفكرين أقل حرصًا– إلى قدر كبير من الهراء والمبالغة بخصوص عملية إعادة تشكيل جذري للأجيال الحالية من البشر بسبب التقنية الرقمية. فقد ظل البشر لمئات السنين يمنحون الآلات صورًا معينةً من القوة، لكن التقنية الرقمية هي التي أتاحت التحكم عن طريق كائنات غير بشرية (مثل: الربوتات، وأنواع الذكاء الصناعي)، وصعدت به إلى مستوى جديد، وبذلك زاد القلق من ناحيتها. أمَّا معتقدات الثقافة الشعبية عن الكائنات الإلكترونية فمنقسمة –بصورة ما– بين الحميد والخبيث. فمقابل كل كائن إلكتروني (مثل: «ترميناتور» (المدمر) (Terminator)، و«دارث فيدر» (Darth Vader)، و«المستنسخ المنتقم»، و«بليد رانر» Blade Runner) يوجد «رجل بستة ملايين دولار» أو «مولي مليونز» (Molly Millions)، و«نيورومانسر» (Neuromancer)، أو «جوردي لافورج» (Geordi LaForge)، و«ستار تريك تينج» (Star Trek TNG). ولا شكَّ في أن هذا هو الشيء المتوقع؛ إذ لا أحد يعرف ما سيفعل بنا التحوُّل إلى كائنات إلكترونية، ولا حتى جون لوك بيكارد (Jean– Luc Picard)، انظر الشكل (3–1)، ويُؤكِّد هذا أفضل مُنظِّري مفهوم الكائن الإلكتروني.

لا ينبغي لنا أن نبالغ في التعبير عن الجدة لأننا بدأنا حقًّا زيادة قدراتنا البشرية عن طريق التقنية مُذْ صنع أسلافنا الأوائل الحراب لصيد الحيوان، وسنوا العصي ليحفروا الأرض ويستخرجوا النباتات الجذرية. فكل تقنية جديدة أحدثت فينا تغييرًا، ثم غيَّرت الطبيعة البشرية بصورة ما. وبحسب جيسون فارمان (Jason Farman)،

فقد أحدثت الكتابة الأولى على الورق (البردي) تحوُّلًا في علاقتنا بالفضاء بطرائق تختلف عمَّا أحدثه أول هاتف محمول؛ إذ كانت الكلمات تُحفَر قبل ذلك على ألواح الحجر الذي لا يمكن تحريكه غالبًا، فلمَّا أمكن التنقل بها على صورة ورق تغيَّر إحساسنا بالفضاء مثلما تحقَّقت إمكانية الاتصال الصوتي مع حركتنا. فقبل اختراع الهاتف الخلوي، كان الردُّ في الهاتف على سؤال: أين أنت؟ قد يُفضي بك إلى الشكِّ في قوى المتصل العقلية، أين أنا؟ ماذا تعني؟ أنت الذي اتصلت بي، أنا هنا في البيت أتحدث بالهاتف، هل أنت ثمل؟ (Farman, 2011).

الشكل (3- 1): القائد بيكارد (Captain Picard) بوصفه كائنًا إلكترونيًّا.

«بما أننا أثرنا مسألة القوى العقلية، فربما يكون هذا هو المكان المناسب للإشارة إلى أن كثيرًا من الناس قالوا مازحين إن أكبر خطر من الهواتف الخلوية أنه لم يعد ممكنًا دائمًا بعد الآن أن تُميِّز في الشارع شخصًا مصابًا بمرض عقلي خطير من شخص يتحدث في الهاتف الخلوي بحماسة شديدة».

يرى عدد من الكُتَّاب الذين يشار إليهم أحيانًا بمؤيدي مذهب «ما بعد البشر» (posthumanists[7]) أن التقنية الحديثة، واكتساب الإنسان بعض صفات الآلة الإلكترونية، وغيرها من صفات المجتمع المعاصر الأخرى، قد حوَّلت الصفات والقدرات البشرية الخاصة، حتى أصبحنا مضطرين إلى الحديث عن نوع جديد من الناس فوق البشر. يشتمل مذهب «ما بعد البشر» على مجموعة متنوعة من الأساليب، وعدد من العلماء البارعين الأذكياء، مثل إن. كاثرين هايلز (N. Katherine Hayles) التي تُدرِّس إيجابيات الصور المختلفة من هذا المفهوم وسلبياتها (1999) للمتحمسين بلا تحفظ، مثل أصحاب مدرسة «المتجاوزون للبشرية» (transhumanists) الذين يعتقدون أننا نستطيع قهر الموت عن طريق تحميل أدمغتنا. يتفق مؤيدو مذهب «ما بعد البشر» على فكرة أن الحواسيب هي أطراف صناعية، وأنها (مثل الأجهزة التعويضية التي يستخدمها مبتورو الأطراف) تمنحنا قدرات ليست لنا من دونها. ولكن، بينما تسعى الأجهزة التعويضية التي يستخدمها المُعوَّقون إلى استرداد وظائف الأطراف المفقودة، تهدف الأعضاء الصناعية لمَن فوق البشر إلى إيجاد قدرات جديدة، قدرات تأخذنا إلى آفاق أبعد من قدرات أجسادنا البشرية؛ إنها مسألة الجسد أو التجسُّد التي تُميِّز بين الحكماء والحمقى من مؤيدي مذهب «ما بعد البشر».

ترى الناقدة هايلز أن مسألة فصل العقل عن الجسد تُمثِّل خطأً نظريًّا لدى كلٍّ من أصحاب المذهب الإنساني[8]، وأصحاب مذهب «ما بعد البشر». أمَّا أصحاب مذهب «ما بعد البشر» الأكثر إشكالية فينظرون إلى الأجساد بوصفها عوائق ينبغي التغلب

(7) (posthuman) مفهوم نشأ أصلًا في أدب الخيال العلمي والفلسفة وعلم المستقبليات، ويعني حرفيًّا الشخص أو الكائن الذي يوجد في حالة تتجاوز صفات البشر. المترجمة

(8) (humanist): منظومة القيم والمعتقدات التي تقوم على فكرة أن الناس أساسًا أخيار، وأنه يمكن حلُّ المشكلات عن طريق العقل لا الدين، وأن الإنسان هو مركز الكون، وأنه يضع القواعد والقوانين لنفسه. المترجمة

عليها، ويعتقدون أن «ما بعد البشر» يعني أن تتحرر من جسدك، أو تُبدِّله بصورة كاملة بحيث لا يمكن تعريفك بأنك الإنسان العاقل الذي انحدر منه البشر (homo sapiens). غير أن الفكرة المشكوك في صحتها أصلًا بأننا يمكن – بصورة ما– أن نتحرر من أجسادنا، ونعيش بعقولنا فقط، ألقت عليها مستجدات الدراسة الحديثة في علم الأعصاب والوعي المزيد من ظلال الشك؛ إذ ترى هذه الدراسة أن الوعي مُوزَّع في أنحاء الجسد، وأنه لا يقتصر على العقل (انظر: Damasio, 2010). وفي هذا السياق، فقد اكتشف علم الأعصاب أمورًا مذهلةً عن العقل، منها أن الوعي أعقد كثيرًا ممَّا يمكن أن نتخيل. صحيح أن لدينا معرفة أكبر من ذي قبل بكيفية عمل العقل البشري، لكن هذه المعرفة تخبرنا أننا لا نزال في مراحل مبكرة جدًّا من استكشاف التضاريس بالغة التعقيد الخاصة بأنواع الذكاء المتعددة المختلفة التي تُكوِّن تفكير الإنسان ومشاعره، وتدفع السلوك الإنساني. وعلى هذا، يكون المذهب المعتدل، لا التكهنات، هو الطريقة الفضلى لبحث السؤال المعقد: ما الشيء الذي يجعل البشر بشرًا؟

وبالمقابل، فإن لدى المفكرين الحكماء الكثير ممَّا يقال عن طبيعتنا التي يزيد فيها امتزاج الطبيعة البشرية بالطبيعة الإلكترونية، وعن الطرائق المختلفة التي نتحوَّل بها، إن لم نكن فوق البشر، أو –على الأقل– من دعاة مذهب «ما بعد البشر». وما من شكٍّ في أن التقنية الرقمية ستستمر في تعزيز عملية تفاعل البشر مع الآلات وتعميقها. لنأخذ مثالًا بسيطًا، فالألعاب الرقمية اليوم تضم مستويات أكبر من التحوُّل إلى كائنات إلكترونية تفوق البشر، عن طريق أشياء، مثل: ووندربوك (WonderBook)، وأبسطة الرقص، ولعبة ووي (wii) التي نحركها من بعيد، وكينيكت (Kinect) التي تزيد فيها المحاكاة، والتي تستخدم المزيد من أعضاء الجسم في التفاعل.

بعد أن تُنظَّم لهذه الألعاب دعاية مكثفة، فإن معظم الأشخاص يتجاهلونها بسبب تكلفتها المبالغ فيها؛ ما يجعل أجهزة الواقع الافتراضي – التي يمكن أن تُعمِّق شعورًا

بالارتباك المكاني لإحداث تأثير أكبر مع توفير أشكال منها- أقل تكلفة. أمَّا الحواسيب التي يمكن ارتداؤها (مثل نظارات غوغل)، وأنظمة التنسيق المباشر بين الدماغ والآلة (أجهزة التحكم في موجات أدمغتنا)، والحواسيب المزروعة فإنها تُستخدَم حقًّا. وستكون هذه الصلات أوثق مع تطور هذه الأنظمة.

يُذكَر أن أفضل الأعمال في مجال الكائن فوق البشري تتجنب الزعم بأن علاقة البشر بالحاسوب خبرة غير مسبوقة، وما تتحدث عنه هو حالة تجاوز البشرية؛ أي تجاوز تعريف معين للخصائص الإنسانية كان موجودًا منذ عصر النهضة على الأقل. فهذا التعريف للجوهر الإنساني يبدو اليوم متحيزًا تحيزًا عميقًا؛ إذ يتقيد بفكرة غربية ذكورية بيضاء عن الذات سعت إلى فرض نفسها على العالَم كله بقوة الفكر في أحسن الأحوال، وبالحرب والهيمنة الاستعمارية في أسوئها. وفي ظل هذا التعريف المهيمن لما هو إنساني، صارت فكرة التحوُّل إلى كائن بعد إنساني فكرة ممتازة. ففي سياق زمني أوسع، نجد أن إحدى الخصائص الأساسية للإنسان الأول هي استخدامه الآلات. وللآلات مُسمًّى ثانٍ هو التقنية. فالتقنية دائمًا هي التي تُوسِّع نطاق أجسادنا وهوياتنا، وتدخلها في فضاءات وصور جديدة كما ذلك لأقاربنا من غير البشر. فقد بيَّنت بحوث أُجرِيت على قرود المكاك -مثلًا- أن شيئًا بسيطًا مثل عصا تحريك الجمر، أو شوكة جمع أوراق الأشجار، تصير جزءًا من صورتها الذاتية الذهنية مع تكرار استخدامها (Maravita and Ikiri, 2008). حتى الغربان تستخدم الأدوات، بالرغم من أنها لا تملك أكثر من مخ الطيور، علمًا بأن الوصول إلى مخ بشري أكبر يتطلَّب دمج أجهزة تعويضية تقنية بطرائق معقدة، ويمكننا عَدُّ هذا الدمج جزءًا من جوهر ما يجعلنا بشرًا، لا جزءًا ممَّا يجعلنا فوق البشر. فقلم الرصاص أو قلم الحبر اختراع تقني لا يقل أهمية عن الحاسوب المحمول. وإن استخدام القلم (أو أيِّ أداة للكتابة عمومًا) أحدث تحوُّلًا في حياة البشر، أعمق من أيِّ تطور تقني، ربما باستثناء التحوُّل إلى الزراعة. وينطبق هذا على الاختراع الذي كثيرًا ما يقارن به اختراع الحاسوب من حيث الأثر الاجتماعي؛ وهو آلة الطباعة. فقد أحدث اختراع

هذه الآلة تغيرات عميقة في العالَم الاجتماعي، ما زال أثرها يتردد حتى بعد أن بدأنا نقترب خطوة بعد أخرى من عالَم ما بعد الطباعة. لكن آلة الطباعة هذه لم تجعلنا فوق البشر بالنسبة إلى إنسان ما قبل الطباعة. وليس ثابتًا على أيِّ نحوٍ أن التقنية الرقمية جعلتنا فوق البشر بالنسبة إلى البشر المطبوعين على استخدام آلة الطباعة.

ثمَّة أسئلة متميزة تُطرَح اليوم عن الكيفية التي يمكن بها أن تعيد الأجهزة الرقمية تحديد علاقتنا بالعالَم، وببعضنا بعضًا. غير أن الصياغات في هذا الموضوع كثيرة جدًّا، وليس هذا بشيء غير مسبوق. فمثلما ذكرنا قبلًا، من الراجح أن وسائل الاتصال المحمولة تُغيِّر علاقتنا بالفضاء الاجتماعي. فقد أشار جيسون فارمان إلى أن ساعة الجيب هي أداة يمكن مقارنتها من أوجه عدَّة بالهاتف الذكي. فكما أعادت الساعة تعريف علاقتنا بالزمن، فنظَّمته، وجعلتنا على وعي أكثر بمرور الزمن، فإن الأجهزة الرقمية المحمولة قد تُغيِّر علاقتنا بالفضاء، فتُقلِّص إحساسنا بالمسافة. فالعالَم أصبح يأتي إلينا عن طريق الوسائط المحمولة بعد ما كنَّا نذهب إليه. وبالمثل، فلا شكَّ في أن التقنية المختلفة تُغيِّر إحساس اتصالنا بالعالَم، وببعضنا بعضًا. فقد أوجدت الهواتف الذكية الموجودة معنا دائمًا حالة من الاتصال الدائم الذي يمنحنا أحساسًا أقوى بأننا نوجد في أكثر من مكان واحد في الوقت نفسه؛ إذ يأخذنا الهاتف الذكي بعيدًا عن بيئاتنا المحيطة، أو يضاعف هذه البيئة في أحسن الأحوال، فهل يُمثِّل هذا عملية مضاعفة قدرات الكائن الإلكتروني؟

يطرح مُنظِّرو الكائن الإلكتروني، وبعض الحالمين من مُنظِّري ما بعد الإنسانية، أسئلة مفتاحية عن طريقة تناولنا علاقتنا التي تتوثَّق كل لحظة بالتقنية الرقمية. وجوهر هذه التساؤلات هو الطبيعة الإنسانية نفسها؛ إذ تتيح لنا التقنية أن نُغيِّر في أجسادنا عن طريق الجراحة، ونزيد من قدراتنا البدنية والعقلية عن طريق تفاعلات كثيرة جديدة مع الأجهزة الرقمية، بل تتيح لنا أن نُعدِّل من أنفسنا على مستوى

البصمة الوراثية (DNA)، وربما سيؤدي هذا إلى إيجاد «بشر مُصمَّمين تصميمًا خاصًّا».

إن تاريخ هذه المحاولات حافل بالقصص المرعبة (وحش فرانكنشتاين، وحركة علم تحسين النسل، والتجارب الطبية النازية)؛ ما يُطلِق الكثير من صيحات الإنذار. ومرة أخرى، فإن أفضل الأسئلة لن تكون عمَّا ستفعله بنا التقنية، وإنما عن التقنيات التي يجب تطويرها (وتلك التي يتعيَّن علينا التوقف عنها)، ولمصلحة مَن ستكون هذه التقنية. إن الشيء المثير الذي يتعلق بمجاز الكائن الإلكتروني هو أنه يحررنا من كثير من الأفكار المقيدة للطبيعة البشرية. أمَّا الشيء المفزع فيه فعمله على تحريرنا من كثير من مفاهيم الطبيعة البشرية؛ لأنه سيتركنا جميعًا نكابد مواجهة القضايا الشائكة، وهي: مَن نحن حقًّا؟ ماذا نريد أن نكون بوصفنا بشرًا، أو كائنات فوق بشرية؟

بالرغم ممَّا يمنحه مصطلح «بعد الإنساني» من قوة إثارة للفكر، فإنه يبدو لي قريبًا من مصطلح «بعد فناء الإنسان»، ولكني أقترح مؤقتًا، ونحن نُفكِّر في هذه القضية المهمة المتعلقة بالصفات الأساسية للبشرية في مواجهة التقنية الجديدة، ألَّا نتجاهل أشياء، مثل: الحرب النووية، أو التغير المُناخي العالمي الذي سيجعل العالَم عالَمًا بلا إنسان بالمعنى الحرفي.

إخفاء الهوية، وإزالة التثبيط والدمى المتحركة، يا للهول!

إذا كنَّا قد أفضنا في الحديث عن التحرر من الجسد، فإنه يوجد نوع آخر من التحرر من التحفظ، وهو أكثر انتشارًا واتصالًا بالموضوع. وقد تناولت الكثير من المناقشات الأولى عن التقنية فوائد إخفاء الهوية. ويتكلم الأطباء النفسيون عن التحرر من التحفظ بوصفه أحد العوامل التي كوَّنها إخفاء الهوية. وأشهر قوى التحرر من التحفظ هي الخمور والمخدرات؛ فكل مَن حضر حفلًا تُمثِّل فيه الخمور عنصرًا

أساسيًّا يمكنه إثبات أن التحفظ قد يكون أمرًا محمودًا (بالنسبة إلى مَن لم يحضر قطُّ موقفًا فيه تناول للخمور أو المخدرات، فكِّر في الأشياء التي يمكن أن تكون قلتها بثقة لأصدقائك المقربين أو أفراد الأسرة، ولا يمكن أن تقولها على الملأ.) وعلى النقيض من ذلك، فإذا حضرت حفلًا أدَّى فيه تناول الخمور بشخص ما (ليس أنت حتمًا!) إلى أن يجعل من نفسه أضحوكة، أو أن يقول (أو يفعل) شيئًا هجوميًّا، فإنك ستدرك أن التحرر من التحفظ قد تكون له عواقب سلبية وخيمة.

يمكن النظر إلى النموذج نفسه -فيما يتعلق بالتحرر من التحفظ- عن طريق إخفاء الهوية على الإنترنت في الثقافة الرقمية. وقد أظهرت الدراسات بوضوح أن الناس يقولون أشياء على الإنترنت حين تكون هوياتهم محفوظة لن يقولوها أبدًا لو كانت هوياتهم معروفة، بحيث تُعرِّضهم للمساءلة عمَّا قالوه. وعلى هذا، فقد وفَّر إخفاء الاسم -مثلًا- غطاءً لكَمٍّ كبير من خطابات الكراهية على شبكة الإنترنت. وأحد صور الخطاب البغيضة هي «البلطجة» الإلكترونية (cyberbullying) التي تَبيَّن أنها مدمرة. و«البلطجة» ليست ظاهرة جديدة في العالَم، ولكن إخفاء الهوية الذي تُوفِّره الفضاءات الرقمية أضاف إليها بُعْدًا جديدًا جعلها أسهل. فقد قال نحو 80% من الشباب الذين استُطلِعت آراؤهم في «البلطجة» إن الراجح أن يقوموا بأعمال «البلطجة» على شبكة الإنترنت، لا خارجها. وتشير الأدلة إلى أن «البلطجة» في ازدياد، بيد أن هذه الزيادة جذبت - لحسن الطالع- الانتباه إلى هذه القضية، حتى إنه يوجد اليوم مصادر (من بينها مصادر على شبكة الإنترنت) أكثر من ذي قبل تتناول مختلف صور «البلطجة» (Cyberbullying Research Center n.d).

عند التفكير في إخفاء الهوية على الإنترنت، من المهم إدراك هذا الإخفاء ليس أمرًا حقيقيًّا مثلما هو الحال بالنسبة إلى تجاوز القيود عند الاتصال إلكترونيًا. فإخفاء الهوية حالة مؤقتة قد تتحوَّل دائمًا -تقريبًا- إلى هوية باستخدام أدوات التحقيق. فإذا علمنا أنه مع سعي بعض أكثر القراصنة تعقيدًا للبقاء مجهولين، لأسباب واضحة إذا

كان نشاطهم يُعَدُّ إجراميًّا، فإنه يمكن اقتفاء أثرهم، فما الفرصة التي يمكن أن تكون لدى بقية الناس في أن يظلوا مجهولين إذا كان شخص ما يريد حقًّا أن يكتشف مَن كتب هذا التعليق، أو نشر تلك الصورة، أو قام بهذه «البلطجة»؟

إن منح قدر كبير من الثقة في إخفاء الهوية على الفضاءات الإلكترونية يؤدي حتمًا إلى نتائج مروعة، كما تَبيَّن في كثير من الأحيان لعدد من السياسيين والمشاهير والقراصنة والأشخاص العاديين. ويبدو أنه من الأفضل افتراض أن لا وجود لشيء اسمه فضاء إلكتروني مجهول بصورة مطلقة.

أمَّا الجانب الأكثر إيجابية في التحرر من التحفظ فهو إمكانية حثه على حوارات تتسم بالأمانة بدرجة أكبر. وبينما يُمثِّل القول الروماني المأثور «الحقيقة في الخمر» (in vino veritas) نصف الحقيقة على أحسن تقدير، فإن لحرية الكلام من دون رقابة ذاتية فضائلها. فقد كشفت ما تبدو فضاءات مجهولة على الشبكة العالمية أمورًا عدَّةً في الفكر والوجدان الاجتماعي الحالي. وكثير منها يخلو من الإطراء على أنفسنا نحن البشر بوصفنا كائنات عقلانية حساسة، ولكن الأفضل أن تُعبِّر عن ذلك، لا أن تكبته. وجانب نصف الحقيقة من الأشياء هو أن هوياتنا مطلقة العنان لم تعد هي كل الحقيقة عن أنفسنا أكثر من أنها تعبير عن ذواتنا التي نتحكم فيها بصورة أكبر (باستخدام استعارات فرويد المناسبة)؛ فإن كلًّا من تأثير الخمر وتأثير إخفاء الهوية على شبكة الويب يكشف من الأكاذيب قدر ما يكشفه من الحقائق. وعلينا دائمًا -بوصفنا بشرًا- أن نواجه مسؤولية تأويلية هي تصنيف الأشياء إلى صادقة، وأقل صدقًا، وزائفة تمامًا.

يمكننا أيضًا أن نتحدث عن تأثير ما يمكن تسميته إخفاء الهوية السياسية؛ لأن كشف الهوية السياسية قد يكون له عواقب وخيمة عندما تستدعي الدول مفهوم الأمن القومي (مصطلح فضفاض يصلح في بعض الحالات، لكنه غالبًا يكون مجرد غطاء لعدم الرغبة في إطلاق العنان لأنشطة محرجة أو غير قانونية). ولنا في حالة الجندي

الأمريكي برادلي مانينغ (Bradley Manning) (تشيلسي مانينغ (Manning Chelsea) اليوم) أوضح مثال على تكلفة كشف الهوية؛ فهو الذي وضع على موقع «ويكيليكس» الإلكتروني أكبر ملف نُشِر على الإطلاق للوثائق العسكرية والدبلوماسية السرية. فقد اعتُقِل مانينغ، وأساء معتقلوه الأمريكيون معاملته، وحُكِم عليه بالسجن سنوات عدَّة، وقد أطلق هذا الحُكم شرارة جدل بخصوص المعلومات التي يحق للعامة معرفتها (I am Bradley Manning n.d; WikiLeaks. n.d).

الواضح أن الحكومات القوية في العالَم كله تسعى إلى جعل إخفاء الهوية من جانب المعارضين الرقميين (مثل الذين ينشرون على ويكيليكس) أمرًا مستحيلًا، وسنرى إذا كانت هذه الحكومات تستطيع ذلك. يوحي اسم مجموعة القراصنة السياسيين المعروفة بمجهولي الهوية «أنانيموس» (Anonymous) بأنهم يدركون أن إخفاء الهوية لازم لقدرتهم على فضح الفساد والخداع في طريقة حكم الحكومة والشركات (Anonymous. n.d.). وبينما اعتُقِل بعض الأعضاء المزعومين في مجموعة «أنانيموس» فإن وجه المجموعة المجهول (قناع شخصية غاي فاوكس (Guy Fawkes) المستلهم من الرواية المصورة، انظر الشكل (3– 2)، أو فيلم «ثاء رمزًا للثأر» (V for Vendetta)، يعني أنه يوجد أشخاص يحلون محلَّ مَن كُشِفت هويتهم فورًا.

وهذا النوع من إخفاء الهوية مُصمَّم لتذكير الناس بأنه من دون الخصوصية السياسية، ومن دون فضاء تناقش فيه الأفكار السياسية بسرية، لا يمكن أن تعيش الديموقراطية، وأنه من دون الشفافية الحكومية لا يمكن أن نعرف إذا كانت الإرادة الديموقراطية نافذة أم لا. وفي الوقت نفسه، فإن لإخفاء الهوية السياسية بُعْدًا آخرَ سنناقشه في الفصل السادس، وهو أن إخفاء الهوية قد يشجع التعصب السياسي والاجتماعي الذي يهدم الخطاب الجادَّ بين المواطنين. لا شكَّ في أن إخفاء الهوية والتحرر من التحفظ هما قضيتان معقدتان، لكنهما صارا عن طريق جهاز النت الرحب يملكان مدًى واسعًا من التعبير الإنساني، والمعرفة العامة التي تتاح اليوم

بقدر غير مسبوق، وخطاب الكراهية، والمحرضين المستفزين متواضعي الذكاء، وهي فئات ينبغي أن تُعَدَّ ميزة اجتماعية.

الشكل (3- 2): احتجاج يوم الفخر من أجل برادلي/ تشيلسي مانينغ.

(Courtesy: Koby Dogan/Shutterstock.com).

هل تُعَدُّ المجتمعات الافتراضية مجتمعات حقيقية؟

منذ الأيام الأولى لظهور الإنترنت العام كان لإمكانات المجتمعات الافتراضية القدر نفسه من الدعاية الإيجابية والسلبية. وبالرغم من أن الآمال المثالية المتعلقة بهذه المجتمعات قد خفتت بمرور الزمن، فلا شكَّ في أن مجتمعات جديدة ظهرت على شبكة الإنترنت لم تكن لتظهر خارجها، أو تظهر بهذا القدر من السهولة، وبعضها لم يكن ليظهر ألبتة، بالرغم من أهميتها الخاصة لأناس يقيدهم المكان، أو يعيشون في أماكن معزولة جغرافيًّا. فقد غيَّرت شبكة الإنترنت -مثلًا- حياة الكثير من المهاجرين، وجعلت التواصل مع البلاد الأصلية أسهل كثيرًا؛ إذ صارت مجتمعات الشتات (أي مجتمعات المنفي القسري أو الإرادي) تمتلك إمكانات أكبر للتواصل عبر مسافات شاسعة. في الوقت نفسه، ومع اضطرار كثير من هؤلاء المهاجرين إلى التنقل لأسباب اقتصادية، فإن وجود القيود الرقمية يعني تضييق إمكانات التواصل بين هذه المجتمعات بصورة كبيرة وهي في أشد الحاجة إليها.

توجد أنواع كثيرة أخرى من مجتمعات الإنترنت نشأت في أبعاد الزمان والمكان والتكلفة، ولم تكن في المتناول من قبلُ، وهي تتعلق بالسياسة، ووقت الفراغ، والترفيه، ومختلف جوانب الحياة تقريبًا. ولا سبيل إلى إنكار أهمية هذه الأنواع من التواصل بين المجتمعات على شبكة النت، فهي حتمًا تُمثِّل تعزيزًا لإمكانات مَن يستغلها. إذن، فمن الخطأ أن نَعُدَّها أقل واقعية من غيرها من الصلات الجماعية إذا أخذنا منظور المشتركين فيها بالحسبان، بل سيكون هذا من باب التحيز أن نرى المجتمع الجديد أقل شأنًا من أنواع المجتمعات القديمة. فإذا أخذنا بالحسبان ما لا يتاح الآن من تطبيقات وأجهزة للتواصل البصري، التي تتيح نوعًا من التفاعل المباشر، فإنه يصعب تحديد الشيء المفتقد في التواصل على شبكة الإنترنت.

لكن المحير أكثر في أمر هذه المجتمعات هو تألُّفها من أُناس يستطيعون حقًّا الالتقاء في فضاءات غير إلكترونية؛ فإن معظم جوانب النقد التي تُوجَّه إلى المجتمعات الافتراضية تتمثَّل في أن قدرًا من العلاقة الإنسانية الأصيلة يضيع حين يكتفي الأشخاص بالتواصل عن طريق وسائط الإنترنت. وعلى هذا، ينعى عالِم الاجتماع روبرت بوتنام (Robert Putnam) في كتابه ذائع الصيت «عندما تلعب البولينغ وحدك: انهيار المجتمع الأمريكي وإحياؤه» (Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community, 2000).

الانهيار المزعوم للثقافة المجتمعية والمدنية، بل موتها في ظل الظروف الاجتماعية المعاصرة، قبل ظهور الإنترنت بوصفه فضاء عامًا مُؤثِّرًا. بالرغم من أن هذا التحليل يُركِّز على الولايات المتحدة، فقد عُدَّ قابلًا للتطبيق على الموقف نفسه في مجتمعات ديمقراطية أخرى كثيرة. لقيت مزاعم بوتنام معارضات من منطلقات كثيرة، ولكن من المهم ذكر أن نقده هذا ظهر مع انطلاقة شبكة الإنترنت. والأقرب إلى الحقيقة أن قدرًا كبيرًا من الحياة المدنية كان يتكوَّن حقًّا على شبكة الإنترنت، أو أن ثمَّة قصورًا لوحظ في المجتمع، وسرعان ما تناوله مستخدمو الإنترنت بالنقد.

يجدر بمَن يرفضون أن يأخذوا المجتمعات الافتراضية على محمل الجد أن يُفكِّروا في إمكانية إحياء الإنترنت الثقافة الوطنية على نحوٍ ما. أمَّا الزعم بأن مجتمعات الإنترنت هي أقل واقعية فينطوي على تجاهل لحقيقة مهمة، هي أن عددًا قليلًا من أعضاء المجتمعات الافتراضية هم مَن يجدون أنفسهم بالتفاعل على الإنترنت باستثناء نادر، وهي تلك المجتمعات التي ذكرناها آنفًا، والتي لا توجد إلَّا في الفضاءات الرقمية. فإن عتاة ممارسي ألعاب الفيديو -مثلًا- الذين يوصفون غالبًا بصورة ساخرة أنهم مستغرقون على نحوٍ متطرف في حياة افتراضية؛ يحبون أن يلتقوا وجهًا لوجه في فضاءات تبدأ بغرف المعيشة، وتنتهي بالحلبات الضخمة في مؤتمرات الألعاب. والحقيقة أنه يوجد قدر كبير من الشهادات على علاقات تبدأ على

شبكة الإنترنت (تتجاوز كثيرًا مواقع المواعدات الغرامية)، ثم تنتشر في عالمي العمل واللعب وخارجهما. ويبدو أن قدرًا من التحيز المناهض للمجتمعات الافتراضية قائم على الخوف من الجديد، أو الحنين إلى عالَم لم يكن فيه أيُّ وسائط، فعالَم مزعوم من الاتصال المباشر الخالي من الوسائط، لم يكن له وجود ألبتة.

ما مقدار الحياة الافتراضية المناسب لنا؟

إن نوع الأسئلة التي طرحناها آنفًا عن الخصوصية والرقابة والاستفزاز والتجرد من الإنسانية يُفضي بنا إلى أسئلة عن قدر فائدة الحياة الافتراضية لنا. فبعض أصحاب اتجاه الحتمية التقنية يخافون أن تسلب منَّا الوسائط الجديدة جوهرًا إنسانيًّا لا يمكن توصيله إلَّا وجهًا لوجه، ولكن هذا الزعم لا يتعامل مع حقيقة أن لا أحد يقضي كل وقته فقط على الفضاءات الإلكترونية، ويبالغ عادة في ثنائية الوجود على شبكة الإنترنت أو خارجها. والأهم من ذلك أن أصحاب نظريات الاتصال يشيرون إلى أن كل تفاعل إنساني يحدث عن طريق وسيط. فكل اتصال نشارك فيه يكون بوسيط. وأحد أهم وسائط الاتصال لدى البشر هي اللغة اللفظية. واللغة –شأنها في ذلك شأن الوسائط كلها– تعجز عن نقل الأفكار والمشاعر نقلًا دقيقًا، فهي تفصلنا عن بعضنا بقدر ما تصل بيننا. وكل مَن يعرف أكثر من لغة يدرك وجود أشياء يمكن قولها أو التفكير فيها في لغة، ولا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى. فللشكل أهمية، مثلما يمكن لأيِّ أستاذ أدب أن يذكر لك؛ إذ يُؤثِّر الشكل في المضمون. ويتسبَّب كل وسيط لغوي في نشوء عالَم خاص.

تُعبِّر اللغات المرئية (الصور من مختلف الأنواع) عن أشياء تعجز الكلمات عن التعبير عنها (بالرغم من أن الزعم بأن الصورة تعادل ألف كلمة لم يثبت إحصائيًّا، على حدِّ علمي). والحقيقة أن الكلمة والصورة كليهما يُمثِّل وسائط اتصال قاصرة. والفكرة هنا هي أن كل اتصال بين البشر يكون إيجابيًّا وسلبيًّا بحسب الوسيط، وأن

الوسيط الرقمي هو مجرد تنويع على هذه المجموعة الواسعة من العمليات (Kember and Zylinska, 2012). لا يوجد وسيط محايد تمامًا، أو وسيط لا يُكوِّن (أو يُميِّز) أنواعًا معينة من الاتصال، ويقيد إمكانات الاتصال الأخرى. لكن هذا بعيد كل البُعْد عن المقولة المشهورة لمارشال ماكلوهان (Marshall McLuhan) (1964–1994) التي أُسيء فهمها كثيرًا: «الوسيط هو الرسالة». نعم، الوسيط يُسهِم إسهامًا كبيرًا في تكوين الرسالة، لكنه لا يصير الرسالة نفسها، ولا يكون مسؤولًا عنها بصورة كاملة.

إن الشكل الذي نتحدث عنه دائمًا بوصفه أكثر أشكال الاتصال صدقًا، أو ثقةً، أو لا تحده قيود, هو الحوار وجهًا لوجه، لكن الاتصال لا يحدث وجهًا لوجه باختيار اللغة والإشارات المرئية (لغة الجسد) فحسب، بل يتشكَّل كلٌّ منهما تشكيلًا ثقافيًّا عميقًا. فكل لحظة اتصال وجهًا لوجه تكون مفعمة بالأفكار والمشاعر التي تُكوِّنها مختلف الوسائط الأخرى التي نستخدمها (وتستخدمنا)، مثل: الصحف، والكتب، والتلفاز، والهواتف، والإذاعة، والأفلام، والتصوير الفوتوغرافي، والموسيقى، والتصوير الزيتي، والشبكة العالمية، والبريد الإلكتروني، والمُدوَّنات الصغيرة، ومُدوَّنات الفيديو، والهواتف الخلوية، وألعاب الفيديو، وأجهزة عرض الأسطوانات (DVDs)، ومنصات التواصل الاجتماعي، وما شابه. واليوم، فإن بعض قوى الوساطة تلك (أو كلها) تكون معنا حين نلتقي وجهًا لوجه؛ لذا لا يوجد سبب مُقْنِع لتمييز الاتصال وجهًا لوجه بوصفه أكثر صدقًا ومباشرةً. لا يوجد شيء مباشر، أو غير مباشر، فنحن دائمًا نكون حقًّا في حالة متعددة الوسائط حين نتكلم وجهًا لوجه. وهذا لا يعني التقليل من أهمية التفاعل وجهًا لوجه؛ إذ إن له سمات فريدة لا يمكن تكرارها، كما يحدث مع كل وسيط، فإنها تُذكِّرنا بأننا لا نكون أبدًا في حالة تفاعل كامل. فكل اتصال في الثقافات الثرية تقنيًّا لا يُكوِّنه الوسيط الذي نستخدمه فحسب (بما في ذلك الصوت البشري باستخدام وسيط إحدى اللغات الإنسانية المتعددة)، بل تُكوِّنه مختلف الوسائط الأخرى التي رسمت معالم الشخص الذي يشارك فيما يُسمَّى الاتصال وجهًا لوجه، علمًا بأن التواصل الاجتماعي ليس اسمًا مناسبًا –بصورة خاصة– لبعض المواقع مثل

«الفيسبوك»؛ لأن كل الوسائط اجتماعية. وعلى النقيض من ذلك، فحين نتحاور وجهًا لوجه فقد يكون لدينا ما يمكن بالأحرى أن نُسمِّيه الاتصال وجهًا للفيسبوك، بالنظر إلى الطريقة التي تُنسَج فيها الوسائط الرقمية اليوم في أشكال اتصالاتنا الأخرى.

بالرغم من ذلك، سيكون خطأً جسيمًا افتراض عدم وجود اختلافات بين الحياة عن طريق وسيط رقمي وغير ذلك من تجارب الحياة. فقد كانت شيري تيركل (Sherry Turkle) رائدة تنظير الثقافة الرقمية –مثلًا– أبعد ما تكون عن الثقة بالعالَم التقني، ولم يُلاحَظ هذا في كتاباتها الأولى. وهي تعتقد أن الاستخدام الدائم للحاسوب، والارتباط المستمر باستخدام الأجهزة المحمولة، وتطور صور من الروبوتات (الإنسان الآلي) أشبه بالإنسان (بدءًا بلعب الأطفال، وانتهاءً بالهواتف الذكية الناطقة)؛ قد جعل كثيرًا من الأشخاص أقدر على إنشاء علاقة بالأجهزة الرقمية أكثر ثقة من علاقتهم بالآخرين. وربما تعمدت تيركل أن تُردِّد صدى أفكار بوتنام في عنوان كتابها «وحدنا معًا» (Alone Together, 2012)، فهي تقول فيه إننا كلما توقعنا المزيد من التقنية قلَّ ما نتوقع من بعضنا بعضًا. وتشير إلى أن مستخدمي الحاسوب يفقدون القدرة على أن يكونوا وحدهم، وأنهم –في الوقت نفسه– ليسوا معًا في الواقع. ترى تيركل أيضًا أن نوع الحميمية الافتراضية الذي ينشأ لدينا مع الأجهزة الإلكترونية ليس بديلًا كاملًا عن التفاعلات الإنسانية المعقدة. وبينما ترى أن التقنية تتطور وتتحسن فيما يخص محاكاة الكلام البشري، فإنها تعتقد أن المحاكاة بطبيعتها مجرد تقليد لشيء أغنى، أو يمكن أن نقول أكثر صدقًا. وتشير تيركل إلى خطر مَن تُسمِّيهم أهل العالَم الرقمي الذين ينشأون على هذه الصورة من الحميمية الرقمية، قبل أن ينالوا فرصة تطوير صور أعمق من الحميمية مع أبناء جلدتهم من البشر. وبذلك لن يعرفوا أبدًا الفارق بين النوعين، ولن يعرفوا أنهم خسروا جزءًا حيويًّا من وجودهم الشخصي.

وفي هذا السياق، يعارض ناثان جيرغنسون (Nathan Jurgenson) شيري تيركل؛ إذ يقول إن الأمر ينطوي على مفارقة لأن كثيرًا منَّا يقضون وقتًا طويلًا جدًّا على شبكة الإنترنت، وأننا صرنا نعي أهمية الوقت الذي نقضيه مع العائلة بعيدًا عن الإنترنت، بل نعي أهمية الوحدة والانقطاع عمومًا عن الناس أكثر من قبلُ، حتى صارت هذه الأوقات أثمن عندنا ممَّا كانت لظننا أنها تضيع منَّا. وقد أشار جيرغنسون إلى أن كثيرًا من الناس صاروا يتباهون اليوم بمقدار الوقت الذي استطاعوا فيه مقاومة رغبة دخولهم شبكة الإنترنت في نوع من التباهي الرقمي العكسي؛ إذ قال: «يتباهى الأشخاص بتحكمهم في أنفسهم عندما يمتنعون عن النظر إلى أجهزتهم [في أثناء تناول الطعام في المطعم]، ويصل الجالسون إلى المائدة إلى إجماع نفرضه على أنفسنا على أن نُبقي أجهزتنا في جيوبنا. وتُعَدُّ قمَّة ما نتعلَّمه من هذا الامتناع عن الهاتف الذكي لعبة من الشائع الحديث عنها (بالرغم من أنني لم أرها بنفسي تلعب قطُّ)، وهي أن أول شخص على مائدة الطعام يخرج جهازه يجب عليه دفع فاتورة الحساب» (Nathan Jurgenson, 2012).

يقول جيرغنسون صراحةً -هذا ما تعلمه شيري تيركل علم اليقين- إن الفاصل بين الوجود على الإنترنت والوجود خارجها (يُسمِّيه جيرغنسون الثنائية الرقمية) هو فاصل زائف قائم على تبسيطٍ مُخِلٍّ. بالرغم من ذلك، فإنه يهمل حقيقة أن الغالبية العظمى من سكان العالَم -حتى اليوم- لم يدخلوا شبكة الإنترنت قطُّ. وهو لا يناقش المدى الواسع من مستويات دخول الشبكة الذي يختلف باختلاف الأفراد. وبالمقابل، لا تعترف شيري تيركل صراحةً أن مجرد دخول الإنسان شبكة الإنترنت يجعل عالَم الإنترنت جزءًا من حياته الحقيقية. ربما أصاب كلٌّ منهما جزءًا من الحقيقة، وسيخبرنا المستقبل وحده كيف سيوازن المستخدمون بين مجالات الخبرة الأكثر رقمية والأقل رقمية.

لقد أدَّت الرغبة في الوصول إلى هذا التوازن إلى نشأة حركة إبطاء التقنية (Slow Technology Movement n.d., Ascharya, 2012)، وهذه الحركة لا تناهض التقنية، بل إن فيها كثيرًا من المتخصصين في صناعة التقنية الفائقة، وهي تنادي بالتمهل والتروي عند التعامل مع الفضاءات والثقافات الرقمية، وتدرك أن الوقت الذي يُصرَف بعيدًا عن الحياة الرقمية ضروري لتحقيق حياة أثرى وأكمل.

الهيمنة، والإمبريالية الثقافية، و/ أو التنوع الرقمي

إن مدى الفكر الإنساني والتعبير عن الرأي والمشاعر المتوافر على الشبكة واسع جدًّا، لكن ذلك لا يعني أن تضاريس العالَم الرقمي مستوية ممهدة؛ إذ توجد موانع في طريق الوصول إلى مجموعة من الثقافات الرقمية والمجتمعات الافتراضية تتسم بالديموقراطية والمساواة، ومنها حشد من التباينات التي تُفهَم على خير وجه باستخدام مفهوم «الهيمنة الثقافية». والهيمنة في سياقنا هذا هي سيطرة ثقافية من دون قوة صريحة أو إكراه، وعملية تدفع فيها جماعات ذات سطوة اقتصادية وسياسية و/ أو ثقافية قيادة مَن هم أقل منهم قوة إلى اعتناق أفكارها، أو على الأقل قبولها بوصفها المنطق العام المقبول، وإن كانت هذه الأفكار تُناقِض العدل والإنصاف، أو المصالح المباشرة للجماعة الخاضعة للهيمنة. فبهذه الطريقة نصل إلى قبول ما يقع علينا من قهر، متوهمين أنه الحال الوحيد أو الطبيعي لمجريات الأمور.

من الحقائق المهمة عن صور الهيمنة أنها تأتي غالبًا مغلفة بالمتعة مثل قرص قاتل داخل قطعة حلوى لذيذة. والأداة الرئيسة للهيمنة الممتعة في العالَم المعاصر هي الثقافة الشعبية، ومنها الثقافة الإلكترونية. وباستخدام مصطلحات تقنية المعلومات والاتصالات، يمكن القول إن الهيمنة هي الاستحواذ على قوة أكبر في تكوين الثقافات الإلكترونية من جانب فئات اجتماعية معينة (البيض، الذكور، الأغنياء) بسبب استحواذهم على النصيب الأكبر من الأدوات التقنية والثقافية اللازمة للمشاركة في

الثقافات الرقمية، مع استمرار هذه الفئات في الاستحواذ على النصيب الأكبر من الموارد الاقتصادية والاجتماعية.

من المفيد هنا طرح بعض الأمثلة على الهيمنة الثقافية. لنأخذ -مثلًا- صناعة الموسيقى؛ فقد صار ممكنًا -بفضل الإنترنت- الحصول على صور من الموسيقى شديدة التنوع من مختلف أرجاء الدنيا. وبالرغم من ذلك، فحين تنظر إلى بيانات من قائمة المئة الأعلى، تجد أن مقطوعة صغيرة من عالَم الموسيقى تحظى بالانتشار بسبب مصالح اقتصادية نافذة تزيح أكثر الإنتاج الموسيقي ابتكارًا إلى الهامش. هذا مثال واضح على عمل الهيمنة؛ إذ لا يجبرك أحد على الاستماع إلى موسيقى البوب الرديئة، لأنه من الأيسر الوصول إلى موسيقى البوب الرديئة في العالَم، بسبب القوة المؤسسية المهيمنة على صناعة الموسيقى (بالرغم من أن التقنية الرقمية قد أحدثت حفرًا كبيرةً في حلبة الهيمنة الثقافية).

لنأخذ أيضًا حالة صناعة نشر المجلات. إذا ذهبت إلى أحد الأسواق الكبيرة، أو محل منشورات إخبارية، ونظرت إلى رفِّ المجلات، فإنك تجد عشرات من مجلات المرأة تعمل معظمها أساسًا على إضعاف شعور النساء بالأمان، ودفعهن إلى شراء منتجات التجميل التي يوفر المعلنون عنها أرباحًا للمجلة (هل تجعلني ملابسي أبدو أنحف بالقدر الكافي؟ هل في بشرتي بقع؟). ففي مقابل صفوف تحوي العشرات من مجلات المرأة، توجد عادة مجلة أو اثنتين -على الأكثر- تنتقد عناصر القهر الكثيرة في مجلات المرأة. لا تعمل الهيمنة هنا عن طريق الرقابة على المجلات النسوية، أو تلك التي تنشد المساواة للنساء، وإنما عن طريق إغراق النساء في بحر من المجلات النسائية الأخرى. فالمجلات المناصرة للنسوية (مثل باست (Bust)، و إم إس (MS) التي تُسهِم في تمكين النساء غير الخاضعات لمبدأ الاستهلاك يمكن أن تستخدم ساعتها دليلًا على توافر حرية التعبير التي تضمنها المجتمعات الديموقراطية.

ووسط هذه الادِّعاءات يُنسى ما لدى صناعة النشر الرأسمالية المحافظة من موارد ضخمة لا تقارن، ويُذكَر وهم امتلاك المستهلكين حرية الاختيار. هذا مثال مباشر على الهيمنة الثقافية على النساء. إن الاختيار في ظل الهيمنة الثقافية يشبه الطلب إلى شخص أن يختار ورقة لعب، أيَّ ورقة من بين ما يُقدِّمه الساحر. إذا أنعمنا النظر وجدنا أن المجموعة كلها مجموعة خداع، وأن اختيارك لم يكن حرًّا ألبتة. يعمل قدر كبير من هذه الهيمنة في دنيا الثقافات الرقمية عن طريق مواقع الشركات على الشبكة العنكبوتية؛ فمحركات البحث والبوابات التابعة لها تكاد تسيطر على المحتوى، وعلى المدى الضيق من وجهات النظر التي يتعرَّض لها معظم المستخدمين. ومرة أخرى، فلا أحد يجبرك على اتِّباع روابط ريديت (Reddit)، أو ياهو (Yahoo)، أو بايدو (Baidu) التي تُعَدُّ أكبر بوابة صينية، لكن الدليل يُوضِّح لنا أن معظم الناس يستسهلون قبول وجهة نظر البوابة التي يتبعونها على أن يكتشفوا وحدهم مدى وجهات النظر الثقافية الواسع المتوافر على الشبكة العالمية.

والهيمنة في معظمها عملية دقيقة، تعمل فيها سمات كثيرة للنت على تفضيل الصوت القوي حقًّا، وجعْل سماع غيره من الأصوات أمرًا صعبًا. لنأخذ مثلًا على ذلك محركات البحث؛ إذ يقول سيفا فايديياناثان (Siva Vaidhyanathan):

«إذا كان غوغل الطريقة السائدة للإبحار في الإنترنت، وبذلك يكون العدسة الرئيسة التي بها نخبر المحلي والعالمي، فإنه يملك قوة هائلة لوضع الأجندات، وتغيير المدركات. وإن تحيزاته (تفضيل الشعبية على الدقة، والمواقع الراسخة على الجديدة، والتصنيفات التقريبية غير الدقيقة على نماذج الحفظ الأكثر مرونة متعددة الأبعاد) في أصل لوغاريتماته تُؤثِّر في طريقتنا المتعلقة بتقييم الأشياء، والإبحار في «عوالم» الثقافة والأفكار».

يوجد بُعْد مرتبط بهذه العملية يُعرَف باسم الإمبريالية الثقافية. والإمبريالية الثقافية تأثير مهيمن على الإنتاج الثقافي (الأفلام، والتلفاز، والموسيقى، وغير ذلك)

من جانب ثقافة على غيرها من الثقافات. والثقافة الخاضعة للإمبريالية الثقافية تغرق وتُغيَّب في المنتجات الثقافية للثقافة السائدة، والنصوص الثقافية التي تأتيها من الخارج تضيع بسببها التقاليد المحلية، أو تتحوَّل تحوُّلًا يطمسها. والإمبريالية الثقافية ظاهرة تسبق كثيرًا اختراع الويب، غير أن دمج (Web 2.0) وسائط أخرى (الأفلام، والتلفاز، والإذاعة، وغير ذلك) داخلها جعلها مُسوِّقًا رئيسًا للإمبريالية الثقافية.

يُذكَر أن الثقافات الأمريكية، ومن بعدها الأوروبية، هي أكثر الثقافات المتهمة بالإمبريالية الثقافية في مواجهة بقية العالَم. فقد امتلكت هذه الأمم الثروة، والقدرة على إنتاج الثقافة الشعبية التي تفيض منتجاتها على العالَم كله. أمَّا اليابان فمتهمة بالهيمنة الثقافية على بقية دول آسيا (وأحيانًا الولايات المتحدة). بالرغم من ذلك، توجد إمبرياليات ثقافية على نطاق أصغر تظهر داخل الدول، ولا سيما بين الثقافات السائدة عرقيًّا ولغويًّا بالنسبة إلى ثقافات الأقليات، أو بين الثقافات السائدة والثقافات الفرعية المعارضة سياسيًّا. وبينما تمتلك الويب إمكانية إيجاد تدفق ثقافي أكثر توازنًا من أماكن كثيرة حول العالَم، فإن أوروبا واليابان وأمريكا الشمالية تطغى على بقية العالَم في الإنتاج الرقمي، كما يفعلون في غيرها من الوسائط، مثل: الأفلام، والتلفاز، وما إلى ذلك.

لقد عملت الويب وغيرها من أبعاد الثقافة الرقمية على إحياء الجدل الدائر حول الهيمنة الثقافية والإمبريالية الثقافية وتعزيزه؛ لأنها تمتلك إمكانية كسر هذا النسق. فالثقافة الشعبية الرقمية لها إمكانية أكبر كثيرًا من الأفلام والتلفاز؛ لأنها أكثر تفاعلية وإتاحة للإنتاج الثقافي الذاتي. ولا شكَّ في أن الإمكانية هي حقيقة قائمة تعمل على إيجاد مسارات للتبادل الثقافي -بتكلفة منخفضة نسبيًّا- بين أيِّ موقع ثقافي أو ثقافي فرعي إلى آخر. بل إن هذا يحدث حقًّا، ولو على نطاق لا يُنافِس وسائط الشركات بصورة مُؤثِّرة.

إن الوصول إلى إنتاج ثقافي ديمقراطي حقيقي لن يحدث تلقائيًّا؛ فليست هذه حتمية تقنية، وإنما يعتمد الأمر على مجموعة من القرارات السياسية والاقتصادية والثقافية. ولا ننسى أصحاب المصالح الاقتصادية والسياسية القوية الذين يُفضِّلون أن تصير الويب منصة إذاعة فحسب، لا وسيطًا تفاعليًّا؛ ليتمكنوا بوساطتها أن يدفعوا بأفكارهم ومنتجاتهم السياسية والتجارية. ستُبيِّن الفصول التالية أن لا بديل عن العمل المباشر الذي سيجعل الإمكانية الواسعة للثقافات الرقمية حقيقة واقعة، وذلك عن طريق التحليلات الناقدة للثقافة الرقمية، والنشاط الاجتماعي الاحتجاجي، والحشد السياسي المُركَّز على هذه القضية.

إن عملية جعل الثقافات الرقمية أكثر انفتاحًا وديمقراطيةً وتمثيلًا تتطلَّب عملًا شاقًّا من الجميع في كل موقع وزاوية رؤية. صحيح أن اكتساب فهم عميق لمواقع الثقافات وزوايا رؤى الآخرين هو أمر عسير، لكنه ليس مستحيلًا ألبتة؛ إذ تتطلَّب هذه العملية اكتساب درجات أكبر من الكفاءة الثقافية. فنحن نكتسب تلقائيًّا درجة من العمق في فهم الثقافة التي نولد فيها، ونُطبّع اجتماعيًّا، لكن تحقيق درجة مقاربة لهذا الفهم العميق لزوايا رؤية أخرى وثقافات أخرى هو أصعب كثيرًا، لكنه -مرة أخرى- ليس مستحيلًا. وأفضل طريقة للوصول إليه هي الجمع بين التعليم الذاتي والاندماج في مواقف ثقافية خارج ثقافتنا.

تمتاز ثقافات الأرض كلها تقريبًا بأنها في حالة تحوُّل إلى التعددية الثقافية، لكن القليل منها -إن وُجِدت- هي التي حقَّقت مساواة كبيرة بين فئاتها الديموغرافية المتعددة. ولحسن الطالع، تتيح الفضاءات الثقافية الرقمية قدرًا كبيرًا جدًّا من الموارد التي تُسهِّل مهمة اكتساب كفايات ثقافية جديدة وفهم أعمق لمواقف الآخرين. صحيح أنها لا يمكن أن تكون بديلًا عن الخبرات المباشرة داخل الثقافات الأخرى (التوازن بين الخبرات على النت وخارجها أمر ضروري)، لكنها تُكمِلها بصورة كبيرة. ولأن مستقبل كوكب الأرض ربما يعتمد على مدى تجاوزنا عوائق التواصل عن طريق

الاختلافات الاجتماعية؛ فإن الاشتراك في جهود جادَّة على النت للتعامل مع العوائق الاقتصادية والسياسية العميقة هو أمر ضروري لازم. صحيح أنه لا يمكن لشبكة النت أن تكون الأداة الوحيدة في هذه العملية، غير أنها أداة شديدة القوة يمكنها تحقيق أشياء أساسية لا يقدر عليها أيُّ وسيط آخر.